شخصيات مجمعية

في الساعة السادسة من مساء الاثنين ٢٩ من ذى الحجة سنة ١٣٩١هـ الموافق ١٤ من فبراير سنة ١٩٧٢ ، اقام المجمع فى دار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصـــاء والتشريع ، حفل استقبال الدكتـور الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة عضو المجمع من تونس ، وفيما يلى ما القى فى الحفل من كلمات :

كلمة الأستاذ زكى المهندس فى استقبال

الدكتور الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة

أيها السادة : فى مثل هذا اليوم من العام الماضى وفى هذه القاعة نفسها سعد المؤتمر باستقبال زميل كريم وعالم جليل هو السيد الأستاذ الشاذلى القليبى وزير الثقافة التونسى الذى اختير عضوا عاملا بالمجمع من تونس الشقيق ، خلفا للعالم الكبير الأستاذ المغفور له حسن حسنى عبد الوهاب :

والليلة يسعد المجمع كل السعادة أن يستقبل زميلا كريما آخر من تونس الشقيق وخلفا للمرحوم الأستاذ الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور وهو السيد الدكتور الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة عميد كلية الشريعة وأصول الدين فى جامعة الزيتونة وأحد أركان النهضة الفكرية العربية ، وإن المجمع إذ يهنىء الزميل الجديد بما نال من ثقة وتأييد ليسره كل السرور أن يرى كفاية عربية جديدة تضاف إلى كفاياته ، ونشاطا علميا جديدا سيلتقى بنشاطه ، فكذلك كان المجمع . وسيظل مثابة للثقافات العالية وملتقى للكفايات الممتازة

إننا إذ نستقبل الزميل الجديد لا ننسى أن اسم تونس الشقيق ، وقد اقترن بهذا المجمع وقت نشأته ؟

فقد كان المرحوم الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب من أولئك الرواد الأوائل الذين حملوا رسالة المجمع وشارك فى وضع الأسس والقرارات التى مازلنا حتى اليوم نفيد منها ، ونعمل فى ضوئها ، ثم بعد ذلك أتى إلينا المرحوم الأستاذ الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ، فكانت له مواقف وكلمات وتعليقات فى المجمع مازلنا نذكرها له بالإعجاب والتقدير :

وهانحن أولاء الليلة نظفر بعالم جليل كما ظفرنا فى العام الماضى بأستاذ جليل ، وهكذا سيظل تونس دائما يزودنا بالعلماء الأجلاء الذين يشاركوننا فى تأدية رسالة المجمع ، وإننا لعلى ثقة أن زميلنا الجديد بما يعرف عنه من نشاط وكفاية سيشغل هذا الفراغ

الذى تركه المرحوم الأستاذ الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور بيننا ، وسيكون خير خلف لخير سلف ، فمرحباً بالزميل الجديد فى أسرة المجمع ، وأهلا به بين الخالدين . أما الآن .

ـ أيها السادة ـ فسيتولى استقبال الزميل الجديد الكريم الدكتور مدكور الأمين العام لمجمع اللغة العربية ، فليتفضل وشكراً .

• • كلمة الدكتور ابراهيم مدكور

سيدى الرئيس ، سادتى :

زرت تونس منذ ثلاث سنوات فى مهمة خاصة بتكليف من المجمع ، ولمست حين ذاك أن للعربية فيها جذوراً أصيلة وعميقة ، بر غم منافسة الفرنسية الشديدة وتعصب فريق لها . وبدت لى آثار ذلك واضحة فى أقلام الكتاب وعلى ألسنة الخطباء فى الإذاعة والصحافة ، فى الدرس والمحاضرة ، فى الأندية والمجالس ، بل فى الحديث الدارج بين الناس ، ولم يتسع لى الوقت لتفهم مدى هذه الظاهرة ، والوقوف على ما وراءها من عوامل وأسباب .

ونعمت هذا العام بزيارة هذا القطر الشقيق مرة أخرى ، فتوثقت صلتى به ، ووقفت على كثير من شئونه ، وزاد اتصالى بشبابه وشيوخه ، وتنقلت بين أطرافه وجوانبه ، وزرت عددا غير قليل من مدنه وشواطئه . ولست فى حاجة أن أتحدث عما حظيت به من رعاية وعناية أعتقد مخلصا أن مردها الأول إلى مجمعكم الموقر ، وإنى لعاجز كل العجز عن أن أوفى تونس والتونسيين حقهم من الحمد والثناء ، أما الزملاء والأصدقاء فأنا مدين لهم بمودتهم الصادقة وأخوتهم الكريمة ، وأتيحت لى الفرصة مرة أخرى لأتبين فى دقة موقف العربية فى هذا القطر الشقيق ، وقد وجدتها صامدة لتقلبات الدهر ، تصارع وتجالد ، وتسترد مكانتها بعد ما أقامه الاستعمار فى طريقها من أشواك ، ولا سبيل بحال للغة أخرى أن تحل محلها :

ولا غرابة فالشعب التونسى عربى صميم ، عربى فى أصله ونشأته ، يعتز بماضيه وتراثه ، ويسعى جاهداً إلى أن يستعيد مجد الأغالبة والحفصيين ، عربى فى حاضره ، يحس إحساساً صادقاً بعروبته ، ويشعر شعوراً خالصاً بأنه جزء من الوطن العربى الكبير . يهتز طربا لأمجاده وانتصاراته ويأسى حزنا وكمدا على ما يحل به من ويلات ونكبات وإن شعبا أنجب ابن رشيق القيروانى بالأمس وأبا القاسم الشابى اليوم لا يمكن أن تصاب العربية فيه بسوء .

ومن حسن حظ هذا البلد الأمين أن قام فيه معهد من معاهد الإسلام الخالدة ، وهو جامع الزيتونة ، ثمرة الماضى وعون الحاضر. وهو أحد مساجد ثلاثة فى أفريقيا لها شأنها فى تاريخنا الثقافى الطويل ، قام إلى جانب الأزهر والقرويين على رعاية التراث الإسلامى وتعهده . أسس أولا ليكون مصلى ومقرا للعبادة ، ثم شاء الحفصيون أن يجعلوا منه أيضاً معهد للدرس والبحث ، فجلبوا إليه الشيوخ والعلماء من الأندلس وصقلية . وأصبح جامعة إسلامية مكتملة ، تعنى بالعلوم النقلية والعقلية ، فدرس فيها الفقه والحديث والتفسير ، والتاريخ والأدب واللغة ، كما درست الفلسفة والرياضة والطب . وكان لهجرة علماء الأندلس فى القرن السابع الهجرى إلى تونس شأن فى ازدهار ثقافى كبير عمر بضعة قرون . واتصلت الزيتونة بالمعاهد الإسلامية الأخرى ، ، وبخاصة الأزهر الشريف .

وتخرج فيها عدد غير قليل من الأئمة والعلماء ، والكتاب والأدباء ، ويكفى أن أشير إلى أن ابن خلدون عالم تونس الكبير نهل من حياضها .

قضت هذه الجامعة التونسية نحو ثمانية قرون تسير فى طريقها ، وتنشر العلم والثقافة. وفى القرن التاسع عشر أريد تطويرها ، والتطور سنة من سنن الحياة . ولم ير القائمون عليها بأسا فى أن يسايروا الزمن ويلائموا بين الحاضر والماضى . وما الجمعية الخلدونية إلا صورة من صور هذا التطور ، أنشئت عام ١٨٩٦ على هدى من تعاليم الأستاذ الإمام ، وقد كان له بتونس صلات وثيقة وقصد بها أن تعلم فيها العلوم العصرية باللغة العربية ، وأقبل عليها طلاب الزيتونة ، ورغبوا فى أن يمتد هذا التعليم إلى معهدهم ، واستجاب المسئولون لذلك ، وأخذت حركة الإصلاح تقوى وتشتد . وجمعية قدماء الصادقية دعامة أخرى من دعائم التجديد والإصلاح ، ربى أبناؤها على أساس من الثقافة الفرنسية ، ولكنهم ما لبثوا أن مزجوها بالثقافة العربية ، فتلاقت الصادقية فى البداية مع الخلدونية ، وقد قاما معا على أكتاف الزيتونة ، وجاء الصدى للتطور المنشود .

وقد أضحت الزيتونة نفسها واحدة من كليات جامعة تونس الحديثة ، وتضطلع بوجه خاص بعلوم الشريعة وأصول الدين ، وتؤدى رسالة عظمى فى ميدان الثقافة التونسية ، ولا يقف اشعاعها عند تونس وحدها ، بل يمتد إلى أبناء أقطار أخرى فى أفريقيا وآسيا . يفدون إليها وينهلون من حياضها .

وللزيتونة أياد على مجمعنا هذا ، أسهمت فيه منذ إنشائه ، أمدته بأئمة أعلام ، وغذته بغذاء صاف كريم . فكان الخضر حسين من أعضائه المؤسسين ، ولاتزال بحوثه القيمة حجة يرجع إليها . واختير الشيخ الجليل محمد الطاهر ابن عاشور بين أوائل

أعضائه لمراسلين ، وهو من نعرف تفانيا في خدمة اللغة والدين ، ، امتسساكا بكلمة الحق ، أطال الله بقاءه ونفع به الإسلام والمسلمين ، وحسنى عبد الوهاب ، وإن كان صادّ النشاة ، لم يفته أن ينهل من جامع الزيتونة ، فأكثر التردد عليه وعلى خزائن كتبه حتى اختلط بالمحيط الزيتونى وامتزج به ، ، قد كان من أعضاء المجمع المؤسسين . . ونعمنا معه بزيتونى آخر كبير هو الخالد الذكر محمد الفاضل ابن عاشور ، وقد عرفتموه فاضلا حقا ، وعالما كبيرا ، وإماما من أئمة الأدب ، اللغة والفقه والتشريع .

* * *

، ها نحن أولاء نستقبل اليوم تلميذه وصفيه ، الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة ، وهو زيتونى النشاة والثقافة . نستقبله ليشغل كرسى استاذه ، ولو كان الأمر ميراثا ما كان أحد أحق به منه ، على أنكم اخترتموه وانتم على يقين من أنه خير خلف لخير سلف . وما اظن انى رايت تلميذا شبها بأستاذه شبه الحبيب بالفاضل . يحاكيه فى زيه وسمته ، ويتسم بما اتسم به من شمائل وخلال ، ويسير على نهجه فى درسه وبحثه .

وقد قدم الاستاذ لكتاب « مناهج البلغاء » الذى أخرجه التلميذ ، وفى هذه المقدمة ما يعبر عن البنوة الروحية والود الأثير ، يقول الفاضل : « إنه سرى فى نفس الحبيب ما سرى من نفحات نفسه ومدارك عقلى وحسى » . ورحمة الله على الراحل الكريم ، ومرحبا بالقادم العزيز ، وسأترجم له فى اختصار ، وأشير إلى شىء من جوانب نشاطه وثقافته .

ولد الحبيب فى أوائل العقد الثالث من هذا القرن ، ونشأ فى بيئة دينية محافظة ، وأسهم فى تثقيفه البيت والمدرسة ، فالتحق بالمدارس القرآنية الابتدائية ، وكان أبوه يرعاه ويوجهه ، ويشرف على دروسه فى اللغتين العربية والفرنسية ، وفى سن الرابعة عشرة دخل المدرسة الصادقية ولم يكد يمضى فيها عامين حتى بدأت الاضطرابات السياسية ، ولم يكن بد من أن يسهم فيها شاب مثله ، وداعى الوطن عنده مستجاب دائما ، وكان جزاؤه أن نال شرف السجن والطرد من المدرسة فى سبيل أمته وبلاده . وما أن أطلق سراحه حتى ألحق بجامع الزيتونة ، وفيه أتم دراسته الثانوية والعالية . واستطاع أن يضيف إليه دراسة قانونية ، وحصل على شهادة الحقوق التونسية ويوم أن اكتمل إعداده اجتذبته المعاهد المختلفة ، فدعى للتدريس فى ثانوية الجمعية الخلدونية ، وثانوية الدراسة الزيتونية ، ومعهد البحوث الإسلامية للجمعية الخلدونية ، ولما يجاوز الرابعة والعشرين . وفى عام ١٩٥٠ نجح فى مناظرة التدريس من الطبقة الثانية ، وانتدب بعد ذلك بقليل أستاذا بالتعليم العالى بالجامعة الزيتونية ، وقضى فيها إحدى عشرة سنة . ثم شاء أن يضيف الثقافة الغربية إلى ثقافته العربية ، فالتحق

بجامعة باريس التى منحته درجة الدكتوراه بمرتبة « الامتياز الفائق » بعد عامين اثنين ، وأصبح فى آن واحد الشيخ الزيتونى والدكتور السربونى . ثم عاد إلى وطنه ينشر العلم فى أرجائه ، ويوفى الزيتونة بعض حقها عليه ، وقد عين أستاذا بها ، ولم يبعده عنها إلا عمل بمصلحة النشر بوزارة الثقافة أشرف فيه على إخراج طائفة من الكتب القيمة ، وهو اليوم عميد الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين .

ولم يقف نشاط الحبيب عند تونس بل جاوزها إلى أوساط ثقافية مختلفة ، فدعى للتدريس فى جامعة محمد الخامس ، والقرويين بفاس ، وجامعة بنغازى ، وبكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالبيضاء . وحاضر بدار الفكر بالرباط ، وفى الجزائر بدعوة من وزارة الثقافة . وكان للمشرق فيه نصيب ، فحاضر فى معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ، وفى جامعة آل سعود بجدة . أما رحلاته وأسفاره فتعددة ، زار فى العالم الإسلامى القاهرة ، وبيروت ، وجدة ، والمدينة ، وكراتشى ، وفى أوربا باريس ، ولندن ، وبرلين ، وبون وفرنكفورت ، وليبتز ، وبلجراد ، وبودابست . وأسهم فيما يزيد على عشرة مؤتمرات ، بين أدبية وثقافية ، عقدت فى تونس أو فى غيرها من عواصم العالم الإسلامى . واشترك فى عدة هيئات ، فهو عضو بلجان الموسوعة الفقهية وإحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وعضو قديم بالجمعية الخلدونية ، وعضو بالشبيبة المدرسية لجمعية قدماء الصادقية ، ورئيس للشبيبة الزيتونية ، وجمعية طلبة شمالى أفريقيا ،

* * *

وما أشبه الحبيب فى نشاطه العلمى بشيخه الفاضل ، إنتاجه غزير ومتنوع ، درس وحاضر وحقق وأخرج ، وكتب وألف ، كتب بالعربية وبالفرنسية معا ، قام بهذا كله ولما يبلغ الخمسين فى نشاط الشباب ورجاحة الشيوخ . ويدور إنتاجه حول أبواب ثلاثة : بحوث إسلامية ، ودراسات فى الأدب واللغة والتاريخ ، وتحقيق لبعض نفائس التراث القديم . فعرض الزميل الكريم للعمل والجهاد فى الإسلام ، وعالج موضوع الأخلاق الإسلامية وموقف الإسلام من التطور والتجديد وقد ظهرت سلسلة من هذا أخيرا تحت عنوان : مواقف إسلامية وعنده أن الإسلام دين جد وعمل لا خمول وكسل ، والعمل فيه مناط التكليف وأساس المسئولية ، « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنـــون » والجهاد لفظة إسلامية واسعة الدلالة ، يقصد بها خاصة مجاهدة العدو الظاهر والعدو الباطن ، وترمى مجاهدة العدو الظاهر أولا إلى نصحه ودعوته إلى الرشاد ورفع راية الأمن والسلام ، فإن أبى إلا العدوان والخصومة لم يكن بد من الذود عن الحياض والدفاع عن ذار

الإسلام : وليس عدونا الباطن شيئاً سوى أهوائنا وشهواتنا ، ومجاهدتنا لها هى الجهاد الحقيقى أو الجهاد الأكبر ، لنقف فى طريقها ونترفع عن الخطايا والدنايا . ولم يكن الجهاد فى الإسلام قط مجرد عدوان للظفر والغلبة ، أو الاستعمار والسيادة ، ولا محل لأن يفسر فقط بالحرب والقتال ، بل هو معالجة طويلة ومتنوعة ربما كانت الحرب آخر وسائلها . ومن الخطأ أن يقال إن الإسلام لم ينشر إلا بالسيف . ولاشك فى أن الدعوة الإسلامية السمحة تقوم على أساسين هامين : كفالة الحريات ، وإقرار السلام « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ، « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله » ، « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » . ويحرص الزميل الكريم فى بحوثه هذه على أن يصدر عن الكتاب والسنة وأن يستخلص منهما الأهداف الحقيقية للإسلام . وهو يرى أن تعاليم الإسلام تواجه شئون الدين والدنيا ، وليس فيها ما يتعارض مع أصول الحضارة الصحيحة أو الرقى السليم . أما الدعايات الهدامة ، والأيديولوجيات الكاذبة فليست من الدين ولا من الحضارة فى شىء . وهل من سبيل لأن تقوم حضارة على الماديات وحدها إنها بذلك أشبه ما تكون بحياة الغابات والجاهلية الأولى والإباحية المطلقة ، وهذا ما تشقى به بعض المجتمعات الغربية اليوم ، وما أجدر مجتمعاتنا الإسلامية أن تتحرر من هذه الآفات . وللشيخ حديث طويل فى هذا ألقاه تحت عنوان : « الإسلام وأزمة مجتمعاتنا الحاضرة » بالجزائر فى ديسمبر الماضى بمناسبة الأسبوع الثقافى التونسى .

* * *

وقد عنى زميلنا بالدراسات الأدبية واللغوية والتاريخية عناية كبيرة ، فعرض لبعض الكتاب والشعراء القدامى والمعاصرين ، أمثال الشاب الظريف ، وصفى الدين الحلى ، وشوقى ، والجارم ، وأحمد أمين . واتجه خاصة نحو الأدب ، التونسى ، يحيى ماضيه ، ويحلل حاضره ، تتبع مراحله ، من الفتح والمعهد الأغلبى إلى الدور العبيدى والصنهاجى ، ومنه إلى العهد الحفصى ثم التركى ، ويقف عند العصر الحديث عصر النهضة والتجديد . وله عشر محاضرات فى الشعر العربى المعاصر بتونس ألقيت فى معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ، ولم يفته أن يعالج موضوع الأزجال والموشحات فى الأندلس وبلاد المغرب العربى .

واستوقفته الدراسات النحوية والبلاغية طويلا ، فدرس نشأة النحو العربى ، وبين المدارس النحوية المتعاقبة فى المشرق العربى ، وأشار إلى ما أدخل على النحو من اصلاحات وتجديدات وعلى نحو شبيه بهذا تصدى لنشأة علم البلاغة والمذاهب البلاغية ، وعالج قضايا النقد وما يتصل بها : وفرق بين المدارس البلاغية المختلفة ، وبين أثرها فى الفنون الأدبية .

وله بحث طريف ودقيق فى هجرة الأندلسيين إلى أفريقية فى القرن السابع الهجرى ، وهى هجرة أشرنا إليها من قبل ، وسبق للشاعر الطليطلى أن توقعها قبل ذلك بنحو قرن ونصف حين قال :

يا أهل أندلس شدوا رحالكم
فما المقام بها إلا من الغلط

السلك ينثر من أطرافه وأرى
سلك الجزيرة منثورا من الوسط

من جاور الشر لا يأمن بوائقه
كيف الحياة مع الحيات فى سفط

وقد اتجه مهاجرو الأندلس نحو شمال أفريقيا ، فاستقر به منهم من استقر ، وأوغل فى الرحلة فريق آخر ، اتجه نحو مصر والشام والحجاز . وكان لتونس من هؤلاء المهاجرين نصيب كبير ، نزلوا أهلا ومكانا سهلا ، وأسهموا فى الحضارة والثقافة التونسية إسهاماً واضحاً ، ولا تزال فى تونس أسر معروفة بأصولها الأندلسية ، وأسرة آل عاشور واحدة منها . ويحرص الأستاذ الحبيب على أن يقف عند الأثر الثقافى لهذه الهجرة ، ويلاحظ بحق أن هؤلاء المهاجرين قد غذوا الحركة الفكرية فى تونس بغذاء خاص ، فكان منهم القراء والمحدثون ، والفقهاء والمؤرخون ، والأدباء والعلماء . ويسرد صاحبنا أسماء عدد وفير منهم ، نذكر من بينهم ابن الأبار الأديب الشاعر من بلنسيه ، وكان من أوائل الوافدين (٦٣٥ هـ) ، وابن البيطار (٦٤٥ هـ) النباتى الكبير ، وهو من مالقه ، أقام بتونس زمنا ، ثم رحل إلى مصر ، وكان رئيس العشابين بها وابن سيد الناس (٦٥٧ هـ) الفقيه والمحدث تلميذ ابن خروف وابن جبير ، وهو من اشبيليه ، وابن عصفور (٦٦٩ هـ) النحوى المشهور تلميذ الشلوبين ، وهو من أشبيليه أيضاً ، وحازم القرطاجنى (٦٨٤هـ) الشاعر والناقد واللغوى . ولزميلنا صلة وثيقة به سنعرض لها بعد قليل . وعن هؤلاء وزملائهم الآخرين أخذت الأسانيد الأندلسية ، وعرفت المذاهب النحوية ، وحفظ الشعر والأدب الأندلسى ، وكتب العلم والتاريخ . ونشأت باختصار مدرسة أندلسية تونسية ، كان فيها الفقهاء والمحدثون ، والنحاة واللغويون ، والنباتيون والرياضيون .

وللشيخ الحبيب ولع خاص باحياء التراث وتحقيق النصوص ، وأغلب الظن أن شيخه الأكبر الطاهر ابن عاشور وأستاذه الفاضل غرسا فى نفسه ذلك . فأولع به فى شبابه الباكر ، وكان من أحب الأشياء إليه أن يتردد على المكتبة العبدلية ، وأن يقتنى نفائس المخطوطات .

وقد حقق وأخرج كتاب « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » لحازم القرطاجنى ، وهو الذى قدمه لجامعة باريس ، ونال به شهادة الدكتوراه ، واتصلت عنايته بحازم ، فحقق ديوانه ، وهو تحت الطبع الآن . وحقق كذلك رحلة ابن رشيد (٧٢١ هـ) . وكتابين

آخرين له فى الحديث ، وهما : « السنن الأبين والمورد الأمعن فى السند المعنعن » ، « وإفادة النصيح » ، ونرجو أن يخرج هذا كله للقراء قريباً .

ولصاحبنا منهج مرسوم فى التحقيق وإقامة النص ، وهو منهج علمى دقيق يعتمد على التاريخ اعتمادا كبيرا ، فيستوعب المراجع كلها : قديمها وحديثها ، مفصلها ومجملها ، مخطوطها ومطبوعها ، عربيها وأجنبيها . ويوازن بينها فى نقد محكم ، ويستخلص منها أوثق المعلومات وأصح الأحكام ، ويثبت الآراء المختلفة مرجحا بعضها على بعض ، ومحاولا الفصل فى أدق المواقف وأعقدها . يتأهب لما يحاول تحقيقه ، فيجمع كل ما يهتدى إليه من أصوله ، ولا يفوته أن يستعين ما أمكن بكل ما ورد منه على ألسنة باحثين آخرين . يعرف بالأشخاص والأماكن ، ويشرح الألفاظ الغامضة والعبارات المأثورة . ويختم تحقيقه بمعاجم للمصطلحات والألفاظ الغريبة وبفهارس للأعلام والآيات والأحاديث والأمثال والأشعار . وكل ذلك فى ترتيب واضح ، وأسلوب سهل ولغة دقيقة . والحق أن زميلنا يعول على التاريخ التعويل كله ، وقد تطلب هذا منه اطلاعا واسعا ، وقراءة مستفيضة . وأضحى حجة فى تاريخ الثقافة التونسية بخاصة ، والاسلامية بعامة .

والنموذج القيم فى التحقيق الذى أخرجه خير شاهد على ذلك ، فقد شاء بتوجيه من أستاذه الفاضل ، أن يخرج كتاب « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » لحازم القرطاجنى ؛ عرفه مخطوطا منذ عهد مبكر ، واستعان به فى عام ١٩٥٦ على تدريس النقد ومناهجه لطلبة كلية اللغة العربية بالجامعة الزيتونية ، وأخذ يقلب صحائفه ، ويتدارسه ، واستقر رأيه على إعداد نشره وطوال عامين كاملين بباريس تفرغ له تفرغا تاما ، ثم أخرجه بتونس عام ١٩٦٦ فى ثوب أنيق :

وقد مهد له بمدخل طويل يقع فى نحو ٩٠ صفحة ، ترجم فيها للمؤلف ، متتبعا كل المصادر التى عرضت له من أقوال حازم نفسه ، أو ما كتبه عنه معاصروه ، أو ما سجله له رجال التاريخ والطبقات وبخاصة السيوطى والمقرى . واستخلص من ذلك كله ترجمة كاملة تكشف عن مراحل حياة الرجل وتوضح البيئة السياسية والفكرية التى عاش فيها ، وتعرض لمصنفاته المخطوط منها والمطبوع ، « والمقصورة » على رأسها ، وتبين أثرها فى المشرق والمغرب . ثم اتجه الحبيب إلى تحليل الكتاب نفسه ، فحقق عنوانه ، ولخص موضوعه ، وشرح منهجه ، وأشار إلى العوامل التى أثرت فيه . ولاحظ بحق أنه مؤلف محكم الترتيب ، وضع فى صورة أقسام ، ومناهج ، ومعالم ، ومعارف وإضاءات ، وتنويرات ، وخرج بذلك عن أسلوب التأليف المعهود . وبرغم ترتيبه الدقيق لم يخل من غموض وتعقيد ، لاستعمال الفاظ غريبة ، واستحداث مصطلحات

جديدة ، وإسراف فى المصطلح الفلسفى وهو مع هذا يؤذن باطلاع واسع ، وإحاطة تامة بالأدب العربى ، يستشهد حازم بالشعر الجاهلى والأموى والعباسى ، كما يستشهد بشعر المشارقة والمغاربة المتأخرين . ويشير إلى بعض النقاد والبلاغيين السابقين ، أمثال قدامة بن جعفر (٢٩٤ هـ) وأبى هلال العسكرى (٣٩٥ هـ) ، وابن رشيق القيروانى (٤٦٣ هـ) ، وابن الأثير (٦٠٦ هـ) ، والآمدى (٦٣٠ هـ) ، والخفاجى (١٠٦٩ هـ) ، ولكن من الخطأ أن يظن أنه قنع بمجرد الأخذ عنهم بل له محاولات لا تخلو من ابتكار وأصاله . وكتابه « المنهاج » لون خاص من ألوان الدراسة الأدبية .

والواقع أن هذا الكتاب يتصل اتصالا وثيقا بموضوع دار حوله شئ من الأخذ والرد ، ونعنى به موضوع الصلة بين الدراسات الأدبية العربية وبعض الآراء والنظريات الأدبية الهلينية ، وقد أنكر هذه الصلة فريق ، وأيدها آخرون ، وسبق لابن الأثير أن ذهب إلى أن كلام أرسطو ومن بعده ابن سينا فى الخطابة والشعر لغو ، ولا يستفيد به صاحب الكلام العربى شيئا ، ولكنا نعتقد أنه لم يبق اليوم شك فى أن البلاغة العربية تأثرت بالفلسفة والمنطق على الأخص ، وقديما فرق بين الطريقة الكلامية والطريقة الأدبية ، وما الأولى إلا درس للبلاغة فى ضوء الكلام والفلسفة . ويشهد تاريخ البلاغة بأن الكثيرين ممن كتبوا فيها فلاسفة أو متفلسفون ، كقدامة ابن جعفر ، والجرجانى (٤٧٢ هـ) وحازم القرطاجنى واضح وصريح كل الصراحة فى هذه الناحية ، فقد أخذ بآراء أرسطو وتلاميذه من المشـــائين العرب ، وعول على كتاب « الشعر » لابن سينا ، وأحال عليه عدة مرات ، وهو مستمد من كتاب « الشعر » الأرسطى . ولاغرابة فحازم تلميذ تلميذ ابن رشيد وان لم ينقل عنه وآثر النقل عن الفارابى وابن سينا ، ونزعته الفلسفية والمنطقية واضحة .

* * *

سادتى :

لقد عنينا بتاريخ الثقافة العربية فى عصورها الأولى ، وعالجنا شيئا من تاريخها المعاصر والحديث ، واغفلنا مرحلة طويلة بين هذين الطرفين . أغفلنا أو كدنا . مابين القرنين السادس والثانى عشر الهجرى ، وهى حقبة على ما بها جديرة بالبحث والدرس .

وفى جهود زميلنا الكريم الأستاذ الحبيب ابن الخوجة ما يلقى أضواء عليها ، وما يكشف عن الصلات الوثيقة بين ثقافة المغرب الإسلامى ، وثقافة المشرق . وقد رأيتم كيف طوف بأرجاء الثقافة العربية وأحاط بجوانبها المختلفة ، وفى زمالته الكريمة خير عون لمجمع الخالدين على أداء رسالته .

والسلام عليكم ورحمة الله ،،،

• كلمة الدكتور الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه وسلم

حضرة الرئيس الموقر

حضرات الأساتذة أعضاء المجمع المحترمين

سيداتى الفضليات ، سادتى الكرام

جرت عادة هذا المجمع الجليل — كغيره من المجامع العلمية واللغوية فى مختلف البلاد — باقتبال الأعضاء الجدد فى جلسة علنية عامة ، يقدم فيها أحد الأعضاء العاملين العضو المنتسب ، ثم يتلوه هذا بالحديث عن صاحب المقعد الذى يخلفه فيه تقريرا لاستمرارية العمل بالمجمع وتخليدا للراحل الذى زان من قبل تلك المؤسسة العلمية الموقرة بمواقفه وخدماته وعمله وآثاره .

وإنى حين يقحم بى إقحاما فى هذا المقام الجليل : لأتعثر فى مشيتى حياء ، ويعقد لسانى شعورى بحقيقة أمرى ، وأفقد العبارة الموفية بما يطلب منى وتدعونى ضرورة هذا الموقف إليه .

وأجدنى بادئ بدء مصروفا إلى رد التحية ، وشكر الأستاذ الجليل أمين المجمع على ما حبانى به من عطف وشملنى به من رعاية يحاول بهما أن يرفع من منزلتى لديكم ويقربنى منكم بما تستطيعون به الاطمئنان إلى القادم عليكم الذى يعتقد فى قرارة نفسه أنه لايريد إلا الا ستفادة منكم ، والانتفاع بتجاربكم ، والمسايرة لمناهجكم ، لكونه قاصرا عن المشاركة لكم مشاركة مركزة فيما بلوتم من أسرار البيان ، وحقائق وتصاريف لغة القرآن . وانى لا أقدر على أن أوفيه حقه فقد شرفنى بما عرض له وذكرنى به عرضا وذكرا يصوران كمال خلقه وجميل أدبه وما أعرب عنه وترجم عليه من حسن ظن بى أرجو محاولة تحقيقه بما يكسبنى محبتكم ، ويدنينى منكم .

وهل أشك فى تفضلكم بذلك ، أوأتردد فيما أطمع وأتطلع إليه من صداقتكم وحدبكم وقد بذلتم الشواهد عليه أولا وآخرا . فكنتم المقترحين لعضويتى المبادرين بإكرامى فى غيبتى حين شئتم أن أكون لمجمعكم عضوا مراسلا ؛ ومن بعد عام رشحتمونى لأكون عضوا عاملا .

وليس لى ما أطمح به إلى هذه المنازل الشريفة العالية إلا ما طبعت عليه من إخلاص للعربية ، وتفان فى خدمتها ، وذود عنها ،

أنا فى جميع ذلك مدين به للراحل العزيز أستاذى وشيخى مقام والدى ، العلامة محمد الفاضل ابن عاشور ، تغمده الله برضوانه : وأسكنه فسيح جناته .

وإنى لأزجى لكم من الشكر على ثقتكم الغالية التى أعتز بها اعتزازى بلغتى وأدب قومى ، ما يكافئ جهودكم الجبارة فى الحفاظ على العربية ، والدعم لها ، والحرص على إنمائها وإثرائها ، والمساعدة على تطورها والنهوض بها ، تطورا ونهوضا تستعيد به ما سلف من مجدها ، وتكون معه لغة إنسانية عالمية ، لاتضيق بشئ مما تمتد إليه أيدى الناس ، أويعن لهم من آراء وأفكار ونظريات وقوانين ومصطلحات وأغراض وعلوم وفنون .

وإن فى الأعمال التى يشتغل بها مؤتمركم فى كل عام مما يتصل بأصول اللغة والمعجمات والمصطلحات والبحوث والدراسات ، وفى ما يصدر عن المجمع من منشورات ومعاجم وكتب ، وفى ما تقوم به اللجان العلمية من تحقيق ودرس على مر الأيام وطوال السنين ، وفى ما تتجهون إليه وتنمونه وتؤكدونه من صلات المجمع بالهيئات والمنظمات العلمية ، ما هو كفيل بما نؤمله للغة العربية من ازدهار ، وللسان الوحى الإسلامى من غلبة وظهور .

وإنى لأحس بالفراغ الكبير الذى تركه الراحل الخالد فضيلة الأستاذ المقدس المبرور محمد الفاضل ابن عاشور بينكم ، وأشعر بما تشعرون به لذكراه من أسى على فراقه . وأعلم أن أى واحد من بعده من أهل بلده - لايمكنه أن يشغل ذلك الفراغ الذى تركه ، أو يقوم بالدور الذى كان يقوم به معكم بهذا المجمع .

فلقد كان — رحمه الله — فردا فيما تجمع فيه من خصال وكمالات ومعارف وآداب ولطائف وأذواق . وكان وحده الذى يستطيع أن يمثل بصدق هذا المجمع - مجمع اللغة العربية - ببلده ، كما كان يمثل أحسن تمثيل بلده المسلم العربى التونسى به . ولا غرو فى ذلك فقد كان طود علم ، وقمة فكر ، أجمع الناس من حوله فى الأجيال التى تخرجت عليه وعاشت معه على كونه المثل والرائد والأسوة . وقبلوا فى تقدير وإجلال رئاسته الفكرية والعلمية فى كل ميدان حل به أو مجلس ظهر فيه .

تعود معرفتى به إلى أيام الدراسة الثانوية زمن كنت تلميذا فى الصفوف الأولى بالمدرسة الصادقية . وكان كل ما نتصل بهم من الأساتذة هناك يطبقون على تعظيمه وإكباره ، وينعتونه بالعلامة البحر . حتى إذا تحولت إلى الجامع — جامع الزيتونة الأعظم كعبة العلوم الإسلامية والعربية بإفريقية ، رأيت فيه علما لا نظير له فى الشيوخ والمدرسين ، يتميز عن جميعهم بكمال الذات والأدوات ، وبعد الغور ، واتساع النظر ،

وشمول المعرفة . وقد اقتضى ذلك فيما أحسب حسن تخرجه على شيخنا الأستاذ الإمام والده أطال الله عمره المبارك ، وأخذه بالمنهجين المتكاملين والوجهتين المتلاقيتين فيه، الأصالة والتفتح .

يشهد لأصالته مارواه وسمعه وقرأه ودرّسه ودرسه من أمهات الكتب الجليلة والمصنفات العظيمة المعتمدة فى العلوم اللسانية والشرعية جميعا . فقد حضرنا دروسه للمطول ، والبيضاوى بحاشية الشهاب ، والعقائدالنسفية ، وجمع الجوامع للجلال المحلى . وهو إلى عظيم غوصه ، وبديع تقريراته ، وكمال تدبره لتلك المؤلفات وما كتب عليها ، جليل المحاضرة ، جميل المذاكرة ، عجيب التدقيق والتحرير للقضايا ومسالكها ، والمسائل ومتفرعاتها . لا يكاد يسأل فى شئ إلا أجاب عنه ، مع شرح ومقابلة وتفصيل وتعليل . وهو إلى هذا الجانب العظيم فيه الذى ينفرد به يضم إلى كمال الدراية حسن الرواية فى هذا العصر ببلدنا ، لا يعرف ذلك منه إلا النزر اليسير من طلابه والمنتسبين إليه .

وقد خصنى — رحمه الله وبرد ثراه — بعد دراسة طويلة عليه ، وانقطاع كامل إليه بالإجازة العامة فى كل ما قرأته عليه وسمعته منه ، وما يتحمله من شيوخه من الطرق . وأتحفنى بعد ذلك من بين تلك الأسانيد بأعلاها وأكملها قائلا فى التمهيد له : « وهذا السند العزيز الغالى هو ما لا نعلم أحدا فى الدنيا يحدث به الآن غير والدنا — أدام الله عزه — وهو ، زيادة على خصوصية جمعه بين الصحيحين ، يكون أعلى إسناد مجمع على استيفاء شروطه يحدث به فى الصحيحين ، إذ يكون فيه بين الابن انجاز وبين الإمامين البخارى ومسلم ثلاثة عشر راويا ، ويكون بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة عشر راويا فى ثلاثيات البخارى » . وكتب لى ذلك شاهدا به على نفسه « كتب الله له فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، فى يوم الأربعاء خامس شهر رمضان المعظم من سنة ست وستين وثلاثمائة وألف » .

ثم قرأت بين يديه موطأ الإمام مالك ، وهو يمسك بيده الشريفة نسخته ، وكتب لى فى آخر نسختى ، عند تمام التلاوة ، ما نصه :

(الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم . قرأ على ابنى العزيز محمد الحبيب ابن الخوجه جميع الأحاديث التى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقواله وأفعاله وإقراراته من مسند أو مرسل أو بلاغ مما تضمنته برواية يحيى عن مالك فى الموطأ . وكانت قراءته بهذه النسخة ، غير معتمد على طبعتها لما فيها من تحريف ، قراءة تحقيق وإتقان قدر الطاقة فى أربعة أيام ، وذلك بالمسجد النبوى الشريف بالمدينة المنورة . وكان الختم بعد صلاة العشاء من ليلة الجمعة لأربع بقين من ذى الحجة

سنة خمس وثمانين وثلاثمائة وألف بالروضة الشريفة بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره الكريم ، محمد الفاضل ابن عاشور) .

ومن لطيف الأسانيد التى تحملتها منه وأقرأ بها الجامع الصحيح لأمير المؤمنين فى السنة أبى عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى المسلسل بالمحمدين :

محمد الحبيب ابن الخوجة ، عن شيخى وأستاذى سيدى محمد الفاضل ابن عاشور ، عن والده سيدى محمد الطاهر ، عن جده الشيخ محمد العزيز بوعتور ، عن شيخ الإسلام محمد ابن الخوجة ، عن الشيخ محمد بن التهامى الرباطى ، عن محمد بن عبد السلام النصاصرى ، عن محمد بن الحسن التطاونى ، عن محمد بن عبد العزيز الحنفى ، عن محمد بن علاء الدين البابلى ، عن الشيخ محمد حجازى ، عن الشيخ محمد الغيطى ، عن محمد بن محمد الزنجى ، عن محمد الخضيرى ، عن محمد المراعى ، عن فخر الأئمة محمد القرقشندى ، عن محمد بن فليج ، عن محمد بن مسلم الحنبلى ، عن محمد ابن أحمد بن عبد الرحيم المقدسى ، عن محمد ابن عبد الواحد ، عن محمد بن أبى القاسم القطان ، عن محمد ابن محمد الحفيد ، عن محمد بن طاهر المقدسى ، عن محمد بن عبد الواحد البزار ، عن محمد بن أحمد ابن حمدان ، عن محمد مكى ، عن محمد ابن يوسف الفريرى ، عن الإمام محمد محمد بن اسماعيل البخارى .

وليست هذه الأسانيد مقصـــورة على رواية الحديث النبوى الشريف أو العلوم الشرعية بل له منها ، كما تدل على ذلك الإجازة العامة ، ما يضبط روايته الكتب الأدبية ، ومن ذلك سنده الذى نروى به ديوان الحماسة عن طريق أبى العلاء المعرى الذى كان أعلم أهل عصره به - عن أبى عبد الله النمـــرى ، عن أبى رياش ، عن عبد السلام البصرى ، عن أبى المطوف الأنطاكى ، عن أبى تمام .

وتنطق بتفتحه محاضراته التاريخية والأدبية ودروسه فى الفرق وفى المناهج الأدبية وما كان يتعرض له أثناء ذلك من آراء وأفكار للمستشرقين وغيرهم بالنقد والمناقشة والتصحيح بعد مطالعات واسعة وشاملة لكتبهم ، وتحليل دقيق لمواقفهم ، سواء منها ما يتصل باللغة أو الأدب أو القرآن أو التاريخ أو الحضارة العربية الإسلامية . وقد كان العامة والخاصة ينثالون مع الطلاب على حلقته أو فصله أو قاعة المحاضرة التى يكون بها ، يغترفون من معينه الذى لا ينضب ويتلقون عنه ما لا يستطيعون الحصول عليه بمفردهم فكان يفرغ فى أسماعهم نتائج مطالعاته المختلفة المتنوعة مرتبة منسقة مصفاة لاتشوبها شائبة غموض أو إبهام ولايكدرها توقف أو حيرة .

فعلى أساس تلك الأصالة المثالية التى تشد راحلنا الكريم بمصادر اللغة العربية ومنابع التشريع الإسلامى ومناهج الفكر والنظر فى الثقافة والحضارة الإسلامية التى تجعله لا يصدر فى شأن من شئونه إلا عن ملاحظة لها وتقدير لجانبها ومراعاة وحفاظ على قوانينها وأذواقها ، وعلى أساس هذا التفتح النير الذى كان به الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور الرجل الأصيل مواكبا لعلوم وثقافات وحضارة عصره ، عائشا زمنه ، منتبها لكل ما يجرى به من تغير وتطورات ، متفاعلا معه تفاعلا ينأى به عتق القعود والرجعية ويدفع به إلى الإصلاح .

قامت شخصية الراحل العزيز وتركزت جهوده وأعماله ، فكان الشيخ الجليل وأستاذ الأساتيذ ، إليه المرجع فى كل عويص ، وعنده المصدر لكل بحث قد زاد فى تعلق الناس به ، وإقبالهم عليه ، وحرصهم على زيارته والاتصال به ، بره واحتفاؤه بكل من يلقاه منهم ، وإعانته ومجاملته لكل من يقصد إليه فى حاجة أو مهم . ولم تعرفه فقط حلقات الدرس والمجالس العلمية والأدبية بل تجاوز نشاطه ذلك الحد ليكون شأنه فى مجتمعه شأن العالم المسلم والرجل المصلح الذى ينهض بأعباء قومه ويعنيه من أمرهم ما يعنيهم. فوقف إلى جانب العمال الذين استولى على شئونهم المستعمرون ، وألهوهم بالتنظيمات النقابية التى سخروها لخدمة مصالحهم . فدعاهم بداعى الإسلام والإيمان للتكتل والتجمع ، والخروج من ذلك السلطان القاسر القاهر إلى سلطان وحدة وطنية ترعاهم بعنايتها وتشملهم برحمتها ورعايتها وهكذا بخطبه الحماسية الإيمانية ودعوته الإسلامية الدينية بعث منظمة للشغالين - أسندت إليه رئاسته الشرفية - قابل بها منظمة العمال الفرنسية .

وتنقل — وأنا فى معيته — من أجل التأليف بين عناصر العمال ، والإحكام لروابط الحركة القومية النقابية من أقصى البلاد إلى أقصاها يخطب فى المساجد والنوادى يدعو إلى الإئتلاف وراء الحركة الشغيلة التونسية. فكان صوته يرن فى كل مكان وكلماته تردد على جميع الآذان تحرض على الاتحاد وتحث عليه . ومن كلمة فى مثل هذه المواطن قوله بمدينة صفاقس فى اجتماع نقابى :

« وهكذا قامت نقابة المدرسين ومعلمى المدارس القرآنية لتطبيق المبادىء الإسلامية فى تأييد العامل ونصرة الشغل . فالشريعة الإسلامية قد أزالت كل معنى من معانى التفريق ، والفوارق الظاهرة حكمت بتميز الطبقات ، على أن فى كل عصر كانت فيه مبادىء الإسلام مطبقة ، كانت فيه الفوارق معدومة ، فالحروب أو الفتن التى تقوم بين الطبقات الاجتماعية انما هى ناشئة على غير مبادىء الإسلام . فمن واجب المسلم أن يشعر بما يربط بينه وبين أخيه من مواثيق الأخوة التى هى أمتن من النسب . فالمدار على الاتحاد القلبى لا على ما يرتديه الشخص من البرنس الأبيض والرداء الأزرق » .

وقد كانت روحه الوطنية العارمة التى يذكيها إيمانه بالعروبة ويصهرها تمسكه بالإسلام هى التى حملته مع بعض إخوانه زعماء الحركة الوطنية على إقامة مؤتمر ليلة القدر الذى زج بأثره مع ثلة منهم إلى السجن . وبهذه الروح أيضا شارك فى العمل التحريرى الحزبى ، وخطب على منبر معهد البحوث الإسلامية داعيا ، بعد التحليل والدرس لأوضاع العالم العربى والإسلامى ، إلى وجوب التفكير فى تمتين الروابط بين مختلف أقطار الحامعة الإسلامية ؛ وبتلك الروح أيضا احتفل وأقام مهرجانات عيد العروبة .

فكانت العناصر الثلاثة المقومة لشخصيته ، وهى الوطنية والعروبة والإسلام ؛ بادية فى كل عمل يأتيه أو أثر يصدر عنه ، لايشعر بواحد منها على حساب الآخرين ، ولايخضع للمفاهيم الضيقة التى تعنيها أو توجه إليها الحركات الانفصالية التى لاتهدف إلى مايهدف إليه فى اتجاهه القومى التونسى المغربى العربى الإسلامى . وهو كذلك دائما ما قامت الحقيقة الإسلامية فى النسب الإقليمية والعربية فإذا ضعفت تلك الحقيقة لم يحتفل بالنسب لأنها فقدت جوهرها وعدمت القوة المحركة فيها ، والدافعة لها .

بهذه الروح وتلك المبادىء طبع دراساته الإسلامية والأدبية كالحركة الفكرية والأدبية فى تونس فى فجر هذا القرن ، وأعلام الفكر الإسلامى فى تاريخ المغرب العربى . وأركان النهضة الأدبية بتونس ، ثم عنون لها بتحليلاته الفلسفية ومواقفه الإصلاحية .

فالإسلام فى اعتقاده فكر ونظر ، يملك طاقات عجيبة ؛ ويصنع بذاته لمعتنقيه أصول النهضة كما يرسم لهم مناهج الحضارة ومسالك الرقى والازدهار . أكد ذلك عند حديثه عن نسبة التفاعل بين الكندى وبغداد حين قال :

« فالإسلام يدعو البشر إلى سبيل من النظر العقلى : يسلكونه متجردين عن آثار الوراثات والعصبيات ، متخلصين من تضارب القوى الذهنية ، بين عقلية وإحساسية وإعتقادية ، حتى يصلوا بأنفسهم إلى إقامة الحكمة الحق : المتجانسة مع العقل الصحيح والفطرة السليمة الجامعة لما تشتت بين مذاهب الحكماء من صواب المنزهة عما علق بها من خطأ ، حيث تكون العقيدة بنت عقل إرادى جعل الوجود كله ميدانا لحركته » .

وهكذا تتجه الفلسفة الإسلامية اتجاهها الخاص بها ، فتختلف فى مادتها بعض الاختلاف عن مادة فلسفة السابقين ، وتتبع منهجا مفردا يميزها عن غيرها ، ويكون لها به الغنى عنها والظهور عليها . ولتوضيح ذلك وتقريره يمضى شيخنا قائلا :

« وما كانت الفلسفة الإسلامية بحاجة إلى هذه المادة من فلسفة الأوائل لتنبع منها وتتكون بها ، لأنها فلسفة تخرج من صميم العقيدة الإسلامية ، ولكنها كانت بحاجة إلى

الحكمة القديمة لتجمع أطرافها . وتسيطر عليها بالبحث الفاحص والحكم الممحص ثم لتخرج منها فلسفة جامعة مهذبة قوامها روح النظرة الإسلامية ، ومادتها كل ما أنتجته الأوائل من آراء وما سلكت من مذاهب ، ومنهجها التقريب بين كل ماظنه الأوائل متباعدا ، والتأليف بين ما حسبته متنافرا ، وخاصة فى ما بين العقل والعقيدة والطبيعة ومابعد الطبيعة » .

وعلى هذا النحو من تحليل الفلسفة الإسلامية أو النظر والفكر الإسلامى ببيان خصائصه وإبرازظواهره ومميزاته يتجه العلامة المرحوم شيخنا الفاضل إلى التفريق أولا بين العلم والمعرفة والثقافة ليتخلص من ذلك إلى الحديث عن مقومات الثقافة الإسلامية وما تتميز به ذاتيا عن غيرها من الثقافات . وهنا يظهر العمق الذى يعالج به هذا الموضوع الدقيق . وهو قبل أن يحلل ركائز الثقافة الإسلامية الأربع يمهد لذلك بقوله :

« وإن الثقافة الإسلامية ذاتيه للإسلام ، ناشئة عن خصوصيات تعاليمه ، وخصوصيات المناهج التربوية التى كونت بها الدعوة الإسلامية أمة الإسلام ، فرديا واجتماعيا ، فى الاعتقاد والفكر والسلوك . وبذلك كان للثقافة الإسلامية منهجها الذى اختلف عن جميع المناهج الثقافية ، وسارت به المعرفة والحضارة فى تاريخ الإسلام سيرة ذات مميزات هى التى برز بها التفكير الإسلامى على النحو الذى برز عليه فى التاريخ الوسيط وهذا المنهج الثقافى الإسلامى يتقوم من خصوصيات تتحقق من تلاقيها وتفاعلها مادية الثقافة الإسلامية . وتعتمد تلك ، الخصوصيات على أربعة أركان : الروح والمادة والوضع والحركة » .

فإذا فقد ركن من تلك الأركان ، فأعوزت المادة الروح ، أو خانت الحركة الوضع ، حصل مامنه نستغرب اليوم ، وما هو مشاهد من فروق بين العالمين الأوربى والإسلامى .

« فان حركة تداول التراث العلمى بينهما ثلاثة قرون لم تكن نتائجها بين العالمين متساوية ولامتقاربة بل كانت فيما يظهر للعيان متعاكسة فإذا كان اقتباس الغرب عن الإسلام قد أفاد تقدما واستقلالا وتفوقا ، فإن اقتباس الإسلام عن الغرب لم يفده عزة ولا استغناء ولا ارتقاء بل أصابه بخنوع متواصل وتبعية متظاهرة وما زاده إلا خبالا » .

ولن يعود شأن المسلمين إلى المستوى الثقافى السليم الاصيل الا متى شعروا بأن العلم الرياضى والطبيعى سند للعلم الدينى ودعامة من دعائمه وأن العلم الدينى روح توجه بها المدارك العلمية الرياضية والطبيعية .

« فهنالك يعود العالم الإسلامى إلى الأصالة الفكرية ، وينزع عن التقاليد ، وتبدو عبقريته بالإسلام كما بدت به أولا ، إذ يستمد من ذاتيته الإسلامية روحاً ثقافية

متجانسة مع روحه الإعتقادية ، تجعل التعليم الإسلامى باللغة القرآنية أصلا للتعليم فى مراحله كافة ، ينمو مع نمو الفرد طبعا وفكرا ويمتد إلى طلب المعارف واللغات طلبا حثيثا بدافع من الذات ، ولغاية زكية سامية من الدين ، فيدرك أن منهجه الإسلامى هو منهجه الأصلى لا التقليدى ، وأنه لن يبلغ مبلغ الأمم التى يتطلع إلى اللحاق بها ، إلا إذا طلب العلم على منهجه الذاتى ، وبدافع من نفسه كما طلبت هى العلم على منهج ذاتى لها وبدافع من أنفسها . سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

فالروح الإسلامى ، والتربية الدينية ، والوازع الدينى ، والتمسك باللغة مع مراعاة متطلبات العصر ومقتضياته والاستجابة لمستلزمات رقيه وتطوراته هى الأصول النظرية والطرائق العلمية ، التى جاهد فقيدنا العزيز فى تركيزها ، وعمل مخلصا من أجل الدعوة إليها والحث على التمسك بها . أعلن عن ذلك فى غير ما مناسبة وصرح به فى مقامات مختلفة ، تنطق بذلك بحوثه ودراساته عن منهج الثقافة الإسلامية ، وعن روح الحضارة العربية ، وعن التشريع الإسلامى وغيرها ، كما تردد صدى ذلك ندواته ومحاضراته وخطبه بوطنه وخارج وطنه .

فلله ما بذل الراحل الخالد فقيدنا العزيز أبو عياض محمد الفاضل ابن عاشور ذلك الداعى ، المجاهد فى سبيل اللغة والإسلام ، المكافح المناضل فى سبيل إرساء قواعد الثقافة العربية وبعث وتجديد الحضارة ، الإسلامية جزاه الله عن العربية والإسلام خيراً ، وأفاض عليه من شآبيب الرحمة ، وواسع المغفرة ما يرفع مقامه فى عليين ، ويحشره به مع عباده المخلصين من الشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

وإنى وأنا أخلفه فى مقامى هذا ، وقد بوأتمونى — شكر الله لكم — مقعده بينكم لأوجه من هذا المكان إلى روحه الزكية الطاهرة ، وهو فى دار الخلد ، هذه التحية الخالصة من ابن بار به ، يعرف حقه عليه ، ويحاول قدر الطاقة الجرى على سننه والايتساء به فى ما كان له عنوانا من الفضائل الخلقية والكمالات العلمية . وأرجو الله أن يكتب لى من التوفيق ما أكون به عند حسن ظنكم جميعا ، وأن يمدنى بعونه وأيده كيما أسهم معكم — لا زلتم للغة الضاد حماة ، ولأمجادها دعاة ، ولروائعها بناة — فى الخدمات الجليلة التى تقومون بها والأعمال العملية التى تعكفون عليها والجهود الجبارة التى ما فتئتم تبذلونها قصد حماية العربية وصونها ورعايتها وتعزيزها . أقدرنى الله على أن أكون حريا بالانتساب إليكم والعمل معكم وسدد خطانا جميعا للاطلاع بأعباء المسؤوليات الثقيلة التى تنوء بها كواهلنا من أجل أن نعيد للغة القرآن شبابها وماسلف من زاهر عهودها وأن نحقق لها الانطلاقة الكبرى بفضل ما توفر لها من شمول واتساع مادة وحيوية تجعلها دوما ثابتة ولتطورات الزمان ومقتضيات الحضارة الجديدة مواكبه.

في الساعة الخامسة من مساء الأربعاء ١٣ من شوال سنة ١٣٩١ هـ الموافق اول ديسمبر سنة ١٩٧١ م اقام المجمع فى دار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع حفل تابين للمغفور له الدكتور عبد الرزاق السنهورى عضو المجمع ، وفيما يلى الكلمات التى القيت فى الحفـل :

كلمة الأستاذ زكى المهندس
فى تأبين المرحوم
الدكتور عبد الرزاق السنهورى

سيداتى ، وسادتى :

لقد كان السيد الدكتور طه حسين رئيس المجمع ، حريصا على أن يشارك فى تأبين الفقيد الكريم ، ولكن نظرا لحالته الصحية فقد اضطر إلى الاعتكاف والاعتذار ، وإنى باسمه وباسم المجمع أحييكم وأشكر لحضراتكم كريم مواساتكم لنا فى تأبين الفقيد . وإنه ليعز علينا أن نرى الموت يختطف زملاءنا واحدا وراء الآخر وفى فترات متقاربة ، فما تكاد دموعنا تجف على زميل راحل حتى تعود فتنهمر على زميل آخر ، ففى عام واحد ودع المجمع ثلاثة من أعضائه العاملين الذين كان يعتز بهم ، ويعتمد فى تحقيق رسالته على علمهم ونشاطهم.

لقـد ودع المجمع فى صدر هذا العام الزميل الكريم والعالم الجليل المرحوم الأستاذ مصطفى نظيف ، الذى اغتالته المنية فجأة ثم ودعنا بعده الزميل الكريم المرحوم الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى الذى دهمته سيارة وهو فى طريقه إلى المجمع ليشارك فى حفل تأبين المرحوم الأستاذ مصطفى نظيف .

وها نحن أولاء نجتمع الليلة لتكريم ذكرى راحل كريم ثالث وهو المغفور له الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهورى . لقد وافته المنية فى شهر يونيه الماضى حين كان المجمع فى عطلته السنوية . وكان قد اعتكف عنا عامين كاملين ، أخذ يصارع فيهما المرض، ولكنه انتهى إلى حيث أراد الله لكل حى أن ينتهى .

لقد كانت خسارتنا فيه فادحة وفجيعتنا فيه أليمة، وقد ترك بيننا فراغا ليس من السهل أن يشغله سواه ، على أننا إذ نبكى السنهورى الليلة ، فإننا لانبكى فيه عضوا مجمعيا ممتازا

فحسب ، ولكننا نبكى فيه علما من أعلام القانون ، ورائدا من رواد الفكر والثقافة .

نبكى فيه عالما تجاوزت كفايته القانونية حدود بلده وشع ضوؤها على كثير من البلاد العربية . ولعل أصدق ما وصف به السنهورى أنه « ديناميو » عمل ونشاط ؛ فقد اجتمع له من صفات الصبر والجلد والقدرة على مواصلة العمل ، مالم يتهيأ للقليل جدا من الناس .

وأذكر أننى اجتمعت به ذات مساء فى لجنة من لجان وزارة المعارف وهو يومئذ وزيرها ، وفى أثناء الاجتماع انطفأ النور وطالت مدته وشاء الرفاق أن يؤجلوا عمل اللجنة إلى موعد آخر ، ولكنه أبى وأصر على أن تتم اللجنة عملها وأمر بإحضار بعض الشموع ، وظلت اللجنة تعمل فى ضوء الشموع حتى عاد التيار .

هذا — أيها السادة : — هو فقيدنا الذى نجتمع الليلة لتكريم ذكراه ، رحمه الله وطيب ثراه ، وجعل الجنة مستقره ومثواه .

• • كلمة الدكتور محمد مصطفى الفللى

سيداتى ، سادتى

فقدنا الأستاذ الإمام : فقدنا رجل القانون النابغة الفذ الدكتور عبد الرزاق السنهورى ، وقلما يجود الزمان بمثله . ذلك قضاء الله ولا راد لقضائه ، ولا حيلة إلا الصبر والامتثال لمشيئته . . . إنا لله وإنا إليه راجعون

إن الخطب جلل والخسارة فادحة ، لا لمجمع اللغة العربية وحده ولا لمصر وحدها بل وللشرق كله ، ولعالم القانون بصفة عامة .

كان — عليه رحمة الله — نسيج بر د وحده. فإذا بكيته فإنما أبكى فيه أمة مجتمعة فى شخصه نبكى فيه العالم المتبحر والباحث المدقق والأستاذ المتمكن والمؤلف الفياض والمشرع الحصيف الثاقب النظر ، والقاضى النزيه الحرىُ العادل ، الذى لا يرى إلا الحق سلطة تعلو على سائر الرءوس ، والذى ينتصر للمظلوم ولو كان من خصومه والحاقدين عليه ، ويقتص من الظالم وإن كان من أقرب الأقربين إليه ، أوكان له النصيب الأوفى من الهيمنة والسلطة الغاشمة . نبكى فيه الوطنى الغيور المخلص فى وطنيته ، والاشتراكى الصادق النظر المدرك لأوجاع أمته ، نبكى فيه الرسول المؤمن برسالته ، والعربى الوفى

لعروبته ، العامل على استعادة مجدها والتقريب بين أبنائها وتوثيق الألفة بين قلوبهم .

نبكى فيه كل هاتيك الفضائل والمناقب : تعددت ميادين جهاده وتنوعت المهام التى اضطلع بعبئها ، وامتد نشاطه إلى سائر البلاد العربية أستاذا ومؤلفا ومشرعا . وتوالت أبحاثه ومؤلفاته فيضا غزيرا فى القانون وخاصة فى القانون المدنى ، فخلف لنا ثروة علمية طائلة لايدانيه فيها أحد ، وتراثا خالدا من محكم البيان وصائب التفكير ، ونموذجا رائعا لحسن الأداء وسلاسة التعبير . كنز ثمين لا تبلى جدته ، وذخر دائم لا غنى عنه لرجال القانون على اختلاف مشاربهم فى سائر البلاد العربية .

لقد مكنه من كل هذا الإنتاج الضخم وهيأ له تلك المنزلة السامية سواء فى مصر أو فى الوطن العربى بصفة عامة ما حباه الله به من مواهب عقلية وخلقية فذة وما استقر فى قرارة نفسه وأمام ناظره من مثل عليا تغياها طول حياته :

منحه الله عقلا منطقيا مرتبا ، وذهنا نافذا لا يرضى بالقشور أو السطحيات ، وإنما يعمل فى تؤدة حتى يكشف عن أصول الأشياء ويصل إلى كبد الحقيقة . وأفرغ عليه صبرا وطول أناة فى كل ما يفعل . فكان جلده وتفانيه فى العمل مدعاة للإعجاب بل وللإشفاق عليه . إنما ذلك كله يرجع إلى حبه لفنه . فقد كان محبا لفنه إلى أقصى درجات الحب . وهذا هو سر تفوقه وإنتاجه الغزير فى هذا الميدان . كان يضحى فى سبيل عمله بكل الاعتبارات أيا كانت . كان عمله وخاصة فى ميدان القانون والقانون المدنى فى الطليعة هو متعته وغذاؤه ؛ وهو سلوته وهو هناؤه . وكانت أسعد الأوقات تلك التى يقضيها بين كتبه وأوراقه يطالعها ويناقشها ويستوعب ما فيها ، أو مع إخوان من الصفوة الممتازة يجادلونه ويجادلهم فى شتى المسائل وخاصة المشكلات القانونية . ولم يكن يضن فى هذا السبيل بوقته أو براحته أو بصحته . تعرض له المشكلة فلا يزال يقلب فيها ويجزئها ، ويستعرض سائر وجوهها ومختلف الاحتمالات فى مجابهتها وحلها . ويتناقش مع المختصين فيها ، ويستمع إلى كل رأى وإن كان يسرف فى معارضة رأيه ومناقضته ، كل ذلك فى صبر وفى جلد ودون أدنى ملل مهما طال النقاش ، كما لو لم يكن أمامه فى الحياة سوى تلك المشكلة ؛ يتأمل فيها ويراجع من سبق أن عالجوها ويستوعب آراء من يتناقشون معه . وبعد هذا الدرس وهذا التمحيص يستخلص النتيجة التى ينتهى إليها فإذا بها آية فى سداد الرأى وسلامة التفكير ، تدل على تلك العقلية المنطقية المرتبة وعلى ذلك الذهن النافذ الوقاد .

كان يؤمن إيمانا عميقا وجوب سيطرة القانون . فالقانون هو صوت العدل مجسما يبين للناس كافة حدود حقوقهم والتزاماتهم سواء فى علاقة الأفراد بعضهم ببعض أو فى علاقتهم بأرباب السلطة العامة والقابضين على

مقاليدها . والقانون روح قبل أن يكون نصا ومعنى قبل أن يكون حرفا ، ولهذا يجب أن يكون تعبيرا صحيحا عن الوضع العادل السليم ، يستهدف المصلحة العامة فى غير جور أو حيف أو محاباة . ولهذا أيضا لا بد أن يرسخ فى نفوس الحاكمين والمحكومين وجوب احترامه والإذعان لأوامره ونواهيه . ذلك لأن القانون هو الذى ينظم سير الناس فى طرقات الحياة، ويحدد أبعاد مالهم وما عليهم. فهو الدرع الواقى لكل فرد سواء فى نفسه أو فى ماله أو فى عرضه أو فى كرامته . وعلى أساس القانون السليم العادل يجب أن تقيم الأمة بناءها وإلا انهار كل ما تبنيه أو يتخيل البانون أنهم يقيمونه . كانت هذه نظرة الكريم الراحل . نلمس أمثلة عليها بارزة فى قراراته وأحكامه وهو رئيس لمجلس الدولة، وفى مشروعاته الدستورية التى عهد إليه بوضعها . وفى الحق أن القانون أشبه بشرطى المرور ينظم لأفراد الشعب سيرهم فى طرق الحياة . وبلد تهون فيه سلطة القانون أشبه بطريق مزدحم بالمارة خال من إشارات المرور وممن ينظمه . ومؤدى ذلك دون ما ريب فوضى لاحد لها ، واختلال ضحيته الضعفاء والراجلون .

وكان — عليه رحمة الله — فى هذا السبيل صلبا فى الدفاع عن الحق الذى يمثله القانون عنيدا فى الذود عن حياضه . اختطفته السياسة فترات ما لتفيد من عبقريته ومن نبوغه فكان وهو فى غربتها كالعهد به طول حياته ، عادلا فى تصرفاته مستهدفا المصلحة العامة دون سواها ، مضحيا فى خدمتها بوقته وصحته أبعد ما يكون عن التطلع إلى كسب مادى أو مظهر ما من زيف الحياة، مما يتكالب عليه الناس ويتسابقون ويتفانون فى الوصول إليه ؛ ولم يكن ينسى وهو فى دوامات السياسة فنه المحبب وأبحاثه فى القانون المدنى خاصة ، فلم تنقطع صلته به بل ظل يوالى تآليفه ومحاضراته ؛

وعدت عليه تيارات السياسة أيضا ضيقا بحيدته وطمعا فى إمالته ، فلم يهن ولم تفل عزيمته . وظل كما هو كالطود الراسخ لا تلين قناته ولا يلتوى عوده ، شديد الإيمان بالله وبعدالته وبأنه جل شأنه ناصر للحق وإن طالت غشاوته .

وكان فى طليعة المؤمنين بأن وحدة الشعوب العربية غاية أولى يجب أن تتضافر الجهود من كل النواحى لتحقيقها . ففى ذلك القوة الحقة للعروبة وإعلاء كلمتها فى المجال الدولى ، والوسيلة الناجعة لاستعادة مجدها ورد كيد الحاقدين عليها والطامعين فى ثروات أقطارها. وكان فى هذا الميدان الجندى الباسل والداعية الحصيف الرأى والثاقب النظر . فأخذ يستعين بفنه للتقريب بينها ، وذلك عن طريق توحيد الثقافة القانونية وتوحيد التشريعات أو تقاربها . بهذا ينهل أبناء البلاد العربية فى هذا الصدد من معين واحد وتربط بينهم فى معاملاتهم وتصرفاتهم أيا كانت أنظمة واحدة وتؤلف بين قلوبهم أصول ومبادئ راسخة لديهم مؤمنين بها مجمعين عليها .

كان السنهورى—تغمده الله برحمته—شخصية نادرة تنوعت مواهبه وتعددت مآثره . وكانت حياته صورة مشرفة للعاملين المخلصين المجاهدين ، ومثلا عاليا جديرا أن يحتذيه الناشئون ويجرى على نهجه الحاكمون والمصلحون . وكم يطول بى المقام بعد هذه النظرة المجملة لو حاولت أن أحصى آثاره ومناقبه . وحسبى أن أستعرض فى عبارات موجزة خطواته فى الحياة وثمرات إنتاجه ، وكلها صفحات ناصعة وضاءة ، هى مثار للإكبار والإعجاب وعلى مثلها فليعمل العاملون .

نشأ الفقيد الكريم بالإسكندرية . وكان مولده بها فى سنة ١٨٩٥ . وبعد أن أتم دراسته الابتدائية بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية التحق بمدرسة رأس التين الثانوية ثم بالمدرسة العباسية وحصل منها على شهادة البكالوريا سنة ١٩١٣ وكان ترتيبه الأول بين الناجحين فى القسم الأدبى . ثم التحق بمدرسة الحقوق بقسم المنتسبين وحصل على ليسانس الحقوق سنة ١٩١٧ وكان ترتيبه الأول بين خريجى ذلك القسم . وعين فى ذلك العام بالنيابة العامة . ثم عن رغم حداثة سنه لتدريس مادة القانون بمدرسة القضاء الشرعى خلفا للمرحوم الأستاذ الكبير أحمد بك أمين . وإذ أعيد إرسال البعثات الدراسية للخارج عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى أوفد صيف سنة ١٩٢١ إلى فرنسا للحصول على الدكتوراه فى القانون فالتحق بكلية الحقوق فى ليون . وهناك كان اتصاله بالعلامة الكبير الأستاذ إدوار لامبرت الذى كان فيما مضى ناظرا لمدرسة الحقوق الخديوية . وكان لهذا الاتصال أثر كبير فى توجيه النشاط العلمى للمرحوم الدكتور السنهورى . ذلك لأن الأستاذ لامبير كان زعيم المنادين بأهمية دراسة القانون المقارن فى ذلك فائدة محققة سواء من حيث دراسة القانون القائم أو البحث فى مجال التشريع عن أصلح الأنظمة وأوفها بحاجيات الأفراد ، وتقرير الأحكام العادلة فى معاملاتهم وشتى تصرفاتهم . وفعلا أنشأ الأستاذ لامبرت معهدا للقانون المقارن . وعن هذا الأستاذ الجليل أشرب المرحوم الدكتور السنهورى حبه للدراسات المقارنة . وقد أسهم فعلا بنصيب كبير فى هذا المجال فى المقارنة بين القوانين الوضعية وأحكام الشريعة الغراء .

ومن كلية الحقوق بليون حصل على الدكتوراه فى العلوم القانونية سنة ١٩٢٥ وكان موضوع رسالته « القيود التعاقدية على حرية الفرد فى العمل » . وقد عنى فيها خاصة بدراسة أحكام القضاء الإنجليزى وتناول فيها بحث المعايير القانونية المرنة مقارنا إياها بالقواعد الجامدة . ثم حصل على الدكتوراه فى العلوم السياسية والاقتصادية سنة ١٩٢٦ وكان موضوع رسالته « الخلافة الإسلامية وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية » . وحصل كذلك على دبلوم معهد القانون الدولى بجامعة باريس .

وهكذا نرى أنه قد اتسعت آفاق دراساته القانونية فتناول فى تحصيله مواد القانون الخاص والقانون العام ولا سيما مادة القانون الدولى .

وبعد أن أتم دراساته فى الخارج عاد إلى مصر سنة ١٩٢٦ وعين مدرسا بكلية الحقوق . وربما لا يعرف الكثيرون أن الدكتور السنهورى ذلك القطب العملاق فى القانون المدنى عندما عاد من بعثته فى الخارج كان المقرر أن يعين لتدريس القانون الدولى . ولكن نظرا لعدم خلو المكان فى ذلك الوقت عهد إليه بتدريس القانون المدنى فتفوق فيه وأبدع ، وكان له ذلك الإنتاج الضخم الغزير الذى يعد ثروة غالية وكنزا ثمينا لرجال القانون . وليس هذا بمستغرب فالفضل فى ذلك إنما يرجع إلى تلك العقلية الجبارة والعبقرية الموهوبة وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم .

وسرعان ماتخطى درجات الترقى بالكلية حتى صار أستاذا للقانون المدنى . وفى كلية الحقوق تجلى نبوغه وبرزت شخصيته الفاضلة العظيمة . فكان الأستاذ العطوف على تلامذته ، القريب إلى قلوبهم ، المحبب إلى أسماعهم ، المتفانى فى تثقيفهم وإرشادهم وتيسير عويص المشكلات أمامهم ، يحرصون كل الحرص على محاضراته ويترسمون أسلوبه ومنطقة فيما يلقيه أو يكتبه . وأخذت تتوالى مؤلفاته القيمة . فأخرج فى سنة ١٩٣٠ كتابه فى « شرح عقد الإيجار » جرى فيه على نهج علمى ممتاز . ثم أخرج سنة ١٩٣٤ مؤلفه الشامخ « فى نظرية العقد » وهو يقع فى نحو ألف صحيفة من القطع الكبير . وكان هذا الكتاب بحق فتحا علميا جديدا فى الفقه المدنى فى مصر ، وتلقاه كبار رجال القانون وخاصة من أساطين القضاء بكل تقدير وترحيب .

وقد نشر بعد ذلك كتابه « الموجز فى النظرية العامة للالتزامات » فى ٧٥٠ صحيفة وهو مرجع مبسط شامل لطلاب القانون . كما أخرج كتاب «أصول القانون» بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور أحمد حشمت أبوستيت

وفى سنة ١٩٣٥ ندب عميدا لكلية الحقوق فى بغداد بالعراق فاصطحب معه نخبة من خيرة الشبان الأكفاء . وهناك وضع الأسس السليمة التى قامت عليها دراسة القانون وأرسى قواعد النظام المحكم لكلية الحقوق ببغداد . وكان حصيفا وعمليا فأفرغ جهده فى المواءمة والمقارنة بين المبادئ الحديثة فى القانون المدنى وبين « أحكام المجلة » التى كانت سارية بالعراق وقتئذ ، ووضع مؤلفين فى هذا الصدد لطلاب الكلية . وطلب منه وزير العدل المرحوم رشيد عالى الكيلانى مشروعا للقانون المدنى فلم يتمكن إلا من وضع مشروع لعقد البيع .

ولم تطل إقامته بالعراق . وبعد عام عاد إلى مصر واختار معه العشرة الأوائل من أبناء كلية الحقوق ببغداد وألحقهم بكلية

الحقوق بالقاهرة . وكان من هؤلاء نواة الأساتذة العراقيين الذين اضطلعوا بتدريس القانون هناك فيما بعد .

وفى أواخر سنة ١٩٣٦ انتخب عميدا لكلية الحقوق بالقاهرة . ثم نزعته السياسة من التدريس إلى القضاء المختلط فى سنة١٩٣٧ فكان القاضى النابه بين زملائه من القضاة الأجانب . ثم اختير مستشارا مساعدا بقلم قضايا الحكومة .

وحدث أن استجابت الحكومة فى ذلك العهد إلى ماسبق أن نادى به من قبل من وجوب وضع قانون مدنى جديد للبلاد . فقد سبق أن نشر مقالا مسهبا فى هذا المعنى بمجلة القانون والاقتصاد فى سنة ١٩٣٦ فى العيد الخمسينى للمحاكم الأهلية . وإذ نزلت الحكومة عند فكرته هذه شكلت فى أول الأمر لجنة لتعديل القانون المدنى ، وكان السنهورى من أبرز أعضائها . ثم انتهى الأمر بإسناد مهمة التعديل إليه وحده فى سنة ١٩٣٨ . وكان أن انقطع لوضع مشروع القانون المدنى ، أفرغ فيه جهده مستعينا فى ذلك بنخبة من خيرة رجال القانون الأكفاء ، واشرك معه فى أول الأمر أستاذه العلامة الجليل إدوار لامبير . وفى هذا المشروع سد مابالتشريع القائم من ثغرات على ضوء ماجرت به أحكام القضاء واستقرت عليه ومادعت إليه ضرورات الحياة والأخذ والعطاء بين المتعاملين ، وما اهتدى إليه المشرعون فى مختلف البلاد الراقية تحقيقا للعدل فيما نجم عن تطور أساليب الحياة وماترتب عن ذلك من مشاكل وتضارب بين الحقوق والالتزامات وساعده فى مجهوده الموفق فى هذا المشروع تضلعه فى أحكام الشريعة الغراء وسعة اطلاعه فاقتبس منها وأفاد منها أيما فائدة .

وانتهى وضع مشروع القانون المدنى الجديد سنة ١٩٤٥ ثم مر فى مجلس النواب والشيوخ بعد إدخال تعديلات قليلة عليه وصدر فى أواخر شهر يوليه سنة ١٩٤٨ .

وأكشف لكم هنا عن ناحية مشرفة فى عمله الجليل الذى تفانى فى إنجازه تدل على زهده وإكباره للمعنويات دون الماديات . فقد عرضت عليه الحكومة القائمة وقتئذ مبلغا ضخما لقاء الجهد المضنى الذى بذله فى هذا العمل العظيم وأبى عليه وزير العدل حينئذ الحاحا شديدا فرفض بكل إباء ، وأنا أعلم فى يقين مدى حاجته وقتئذ ، وآثر أن يقدم صنيعه خدمة للوطن ولا يبتغى عليه أجرا فأجره عند الله ، والله عونه ورازقه ، فهو هو عبد الرزاق كما كان دائما ، خدمة القانون والقانون وحده هدفه وغايته .

وقد رأى من واجبه أن يشرح للمطلعين والباحثين ذلك القانون الذى وضعه . فقام بتأليف كتابه القيم « الوسيط فى شرح القانون المدنى » وهو مؤلف فى عشرة أجزاء استغرق فى تأليفها عشرين سنة . وكل جزء منها يتكون من ألف صحيفة أو يزيد ، وبعض الأجزاء يتكون الواحد منها من مجلدين .

وقد أتم الجزء الأخير من هذا الكتاب وهو فى مرضه الأخير ، ولم يقعده المرض عن تنفيذ مااعتزمه ، وإتمام رسالته التى يؤمن بها حق الإيمان . وهذا الكتاب موسوعة مسهبة فى القانون المدنى ، وهى ذخيرة علمية لاتدانى . وكما يقول عنها بحق أحد الأساتذة الأجلاء : « إنها تذكرنا بالمجلدات الضخمة التى كان يعكف على تأليفها فقهاء الإسلام فى العصور الأولى ويفرغون لها العمر كله . ولكن الغرابة تزول إذا ماعرفنا أن ذلك المؤلف الذى اضطلع بكل هذا العبء وحده هو الدكتور السنهورى » .

وإمعانا فى خدمة المادة والتيسير على الطالبين والباحثين كان يعتزم — كما أفصح عن ذلك فى مستهل كتابه « الوسيط » — إخراج موجز يقتصر فيه على بيان الأصول والقواعد الأساسية ، وكذلك إخراج شرح مستفيض فى مؤلف باسم « المبسوط » . وقد آثر أن يبدأ بالوسيط فهو كما أشار إليه بمثابة الحلقة الوسطى من عقد واحد تجمله فيصبح وجيزا وتفصله فيصير مبسوطا .

وقد أصدر فعلا فى سنة ١٩٦٦ كتاب « الوجيز فى نظرية الالتزام بوجه عام » ، لخص فيه الأجزاء الثلاثة الأولى من الوسيط وهو يقع فى ١٣٠٠ صحيفة . وكان فى نيته أن يلخص كل ثلاثة أجزاء من الوسيط فى جزء واحد من « الوجيز » .

وفضلا عن هذه المؤلفات نشر الفقيد أبحاثا ومقالات عديدة باللغة العربية واللغة الفرنسية فى مختلف المجلات العربية والأجنبية ، وكلها كسب عظيم للثروة العلمية . أسوق منها خاصة مايأتى :

باللغة العربية :

١ — تنقيح القانون المدنى وعلى أى أساس يكون (الكتاب الذهبى للمحاكم الأهلية سنة ١٩٣٣) .

٢ — من مجلة الأحكام العدلية إلى القانون المدنى العراقى (مجلة القضاء العراقية سنة ١٩٣٦) .

٣ — مشروع تنقيح القانون المدنى المصرى (مجلة القانون والاقتصاد سنة ١٩٤٢) .

٤ — الروابط الثقافية والقانونية بين البلاد العربية (المجلة المصرية للقانون الدولى سنة ١٩٤٦) .

٥ — عقد البيع فى مشروع القانون العراقى (مجلة القضاء العراقية) .

٦ — الانحراف فى استعمال السلطة التشريعية (مجلة مجلس الدولة سنة ١٩٥٢) .

٧ — تطبيق نظرية الظروف الطارئة (مجلة المحاماة سنة ١٩٦١) .

٨ — الإسلام والشرق (السياسة الأسبوعية ١١ أكتوبر سنة ١٩٣٢) .

٩ — الوحدة العربية (فى ثلاث مقالات) (مجلة الرابطة العربية سنة ١٩٣٦)

وباللغة الفرنسية :

١ ــ المعيار فى القانون (فى مجموعة البحوث المهداة إلى الأستاذ جينى سنة ١٩٣٧) .

٢ ــ الشريعة الإسلامية كمصدر للتشريع المصرى (فى مجموعة البحوث المهداة إلى الأستاذ لامبير سنة ١٩٣٨) .

٣ ــ المسئولية التقصيرية (بالاشتراك مع المرحوم الأستاذ الدكتور حلمى بهجت بدوى ، فى مجلة القانون والاقتصاد سنة ١٩٣٣) .

٤ ــ المسئولية التقصيرية فى الشريعة الإسلامية (مجموعة بحوث مؤتمر القانون المقارن بلاهاى سنة ١٩٣٧) .

٥ ــ الشريعة الإسلامية أمام مؤتمر القانون المقارن بلا هاى (مجلة القانون والاقتصاد سنة ١٩٣٧) .

٦ ــ مجلس الدولة (بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور عثمان خليل عثمان ، فى مجلة مجلس الدولة سنة ١٩٥١) .

ومن نواحى عظمة السنهورى العلمية تمكنه من الشريعة الإسلامية . فقد كان يؤمن بأن فقهاء الشريعة قد خلفوا كنوزا ثمينة من خير ماتنتجه القرائح وتهتدى إليه العقول الناضجة فى التخريج والتدليل والعمل على تحقيق المصالح بين الناس . ولذلك كان يرى أن الشريعة الغراء مصدر عظيم من مصادر التشريع . وله فى هذا الصدد بحث رائق باللغة الفرنسية بعنوان « الشريعة الإسلامية كمصدر للتشريع المصرى » وقد نشر فى مجموعة البحوث المهداة إلى الأستاذ لامبير كما سبق وأشرت إليه . وقد عكف على دراسة الشريعة دراسة عميقة ومفصلة . ولم يقتصر فى ذلك على مذهب معين بل تناول المذاهب المختلفة بالبحث والتحليل والمقارنة . ولهذا لم أدهش حينما قرأت لأحد تلامذته النابهين أنه سمع من أحد الثقاة أن الأساتذة المتفرغين لدراسة الشريعة الإسلامية فى الجامعات البريطانية يعتبرون السنهورى دون أدنى جدال الإمام الخامس بعد الأئمة الأربعة.

وإن أنس لاأنسى جهده الرائع الموفق فى مؤتمر القانون المقارن الذى عقد فى لاهاى فى صيف سنة ١٩٣٧ . فقد صاحبته أنا ونخبة من أساتذة كلية الحقوق كأعضاء فى ذلك المؤتمر الذى كان يتناول موضوعات مختلفة فى شتى فروع القانون . كان الفارس المجلى فى ميدان أبحاث القانون المدنى وفى المقارنة مع أحكام الشريعة الغراء بوجه خاص والدفاع عنها ضد من يتجنون عليها ، وما أكثرهم ، ويردون إلى القانون الرومانى فضل ماجادت به قرائح الفقهاء وثمرات اجتهادهم .

ومن آثاره الخالدة فى خدمة الفقه الإسلامى ماقام به فى معهد الدراسات العربية العليا . فقد تقدم لمجلس جامعة الدول العربية بمشروع

إنشاء معهد للدراسات العربية ووافق المجلس على إنشاء المعهد فى مارس سنة ١٩٥٢ . وعين السنهورى رئيسا لقسم القانون بالمعهد منذ إنشائه وظل رئيسا له حتى أواخر سنة ١٩٥٩ . وقد قام بإلقاء المحاضرات فى الفقه الإسلامى ونشرت هذه المحاضرات على نفقة المعهد فى كتابه « مصادر الحق فى الفقه الإسلامى » وهو ذخيرة قيمة ويقع فى ست أجزاء . وقد طبعه المعهد ثلاث طبعات .

ولم يقتصر نشاطه فى مجال القانون على الدرس والنظر ، بل أن آثاره فى ميدان العمل والتطبيق بارزة عديدة . فقد عمل فى المحاماة فى فترات متقطعة أكثرها طولا مابين سنتى ١٩٤٢ و ١٩٤٥ وله فى هذه الحقبة مذكرات قيمة قدمها لمحكمة النقض فى قضايا خطيرة حدثنى عنها أحد تلامذته النجباء الذين عملوا معه فى تلك الفترة ، وخص بالذكر منها مذكرة مستفيضة فى أكثر من مائتى صحيفة كان لها صيت مدوٍّ وكان موضوعها : «وصيةغير المسلم وخضوعها لأحكام الشريعة الإسلامية » . وتعتبر مرجعا علميا ثمينا فى بابها . ومما يؤثر فى شأنه فى عالم المحاماة أن أرباب القضايا كان يعجبون لتواضعه فى تقدير أتعابه وفى رفض القضايا المجزية .

ومن أروع آثاره الخالدة فى ميدان العمل والتطبيق والتى تعد بحق خدمة جليلة للعروبة وللتقريب بين أبنائها نواحى نشاطه فى مجال التشريع . فقد قصدت اليه أغلب البلاد العربية لتفيد من غزير علمه وواسع خبرته فى وضع تشريعاتها الحديثة . فوضع للعراق قانونها المدنى الذى جمع فيه بين أحكام القوانين الوضعية العصرية وأحكام الشريعة الإسلامية . إذ كان السارى فى العراق من قبل « مجلة الأحكام العدلية » . وهى مجموعة قواعد قانونية مستمدة من الفقه الإسلامى على مذهب الأمام أبى حنيفة جرى العمل بها منذ التبعية فيما مضى للدولة العثمانية . وقد رأى بصادق نظره أن لايقطع الصلة بين الماضى والحاضر وآثر التدرج على الطفرة .

كذلك قام عليه رحمة الله بوضع القانون المدنى فى سوريا وقانون البينات وهو يشمل قواعد الإثبات الموضوعية وإجراءاتها ، كما وضع القانون المدنى فى ليبيا، وتكفل بوضع جميع قوانين الكويت الأساسية ودستورها وكذلك وضع الدستور السودانى . وكان آخر عمل تشريعى قام به فى البلاد العربية مشروع وضع دستور لاتحاد إمارات الخليج العربى، ولكنه لم يتمكن من إتمامه نظرا لحالته الصحية التى لم تكن تساعده على السفر إلى تلك المنطقة لدراسة ظروفها وعوائدها وتقرير مايلائمها . كذلك وضع لإمارة البحرين مجموعة من القوانين العصرية قال عنها أحد الأساتذة المحترمين أنها تعد من المفاخر التشريعية .

ومن الصفحات الخالدة الوضاءة فى تاريخه عهد رئاسته لمجلس الدولة ، وما بدا منه فى ذلك العهد من مواقف حازمة جريئة وماقرره من مبادئ سامية عادلة صونا للحريات

وكبحا لافتيات السلطات الحاكمة وعنتها . وليس من المبالغة فى شئ إذا قيل بأنه حين يذكر مجلس الدولة فإنه يذكر مقرونا باسم السنهورى . فقد جعل من مجلس الدولة حصنا منيعا لحماية حريات الأفراد وملاذا أمينا من عدوان الحاكمين .

لقد تولى رئاسة ذلك المجلس فى سنة ١٩٤٨ وظل به حتى عام ١٩٥٤ . وفى تلك الفترة عمل جاهداً على أن يحقق على خير وجه الغاية التى من أجلها أنشئ ذلك المجلس . وقد عبر عن ذلك فى تقريره له سنة ١٩٤٨—١٩٤٩ بقوله : « إن مجلس الدولة له رسالة جليلة سامية ، فهو يقف إلى جانب الإدارة المصرية يعاونها فيما تحمل من أعباء وتبعات ولأول مرة فى تاريخ مصر الحديث يقوم مجلس الدولة ويصبح حقيقة واقعة . بل لعله أن يكون حقيقة رائعة . روعته أن الإدارة المصرية أعلنت بقيامه أنها تقف إلى جانب الحق والقانون لاتظلم ولا تتعسف » « وأن صدرها يتسع للشاكى يناقشها الحساب فتنصفه أو تتصف منه . وروعته أن الأفراد والجماعات يرون فيه غوثاً للملهوف ولاذاً للعائذ وموئلا للحريات » .

وحسبى أن أشير إلى بعض المبادئ الجوهرية التى قررها والمواقف الحميدة التى حرص عليها والتى تعد مفخرة فى سجل مجلس الدولة .

فى قمة المبادئ السليمة التى أرساها حق القضاء فى رقابة دستورية القوانين ، وذلك خلافاً للرأى الراجح فى ذلك الوقت . أوضح فى بيان مفحم أن السلطة القضائية وهى تراقب تقدير السلطة التشريعية لا تقوم بعمل تشريعى يحول دونه مبدأ الفصل بين السلطات ، ولكنها تقوم بعمل قضائى محض هو تعرف القانون الواجب التطبيق فى النزاع المطروح أمامها . فإذا تعارض التشريع مع الدستور وجب عدم تطبيق التشريع المخالف وتطبيق الدستور سيد القوانين فى البلاد .

ومن تصرفاته العادلة الرشيدة انتصاره لحرية الصحافة ؛ فقد وقف بالمرصاد لما كانت تقرره الحكومة من تكميم حرية الصحف وتعطيلها . لقد أدرك بثاقب نظره الصادق أن حرية الكلمة وحرية الصحافة خاصة هى أول ضمان للحريات عامة ، وأن حرية الصحافة سياج واق من عبث الحاكمين وطغيانهم . ولهذا أصدر بوصفه رئيساً لمجلس الدولة القرارات بوقف ما كانت تصدره الحكومة من أوامر بتعطيل بعض الصحف رافضاً أن يعتبر القرار الصادر بتعطيل جريدة أو برفض الترخيص بإصدارها أو إلغاء الترخيص عملا من أعمال السيادة ، واو كان صادرا من مجلس الوزراء . واتبع هذه القرارات بالفصل فى الموضوع من محكمة القضاء الإدارى بإلغاء القرارات الإدارية الصادرة من مجلس الوزراء . سار على هذا النهج فى إنصاف الصحف حتى وإن كان أربابها من خصومه .

كذلك وقف فى حزم وصلابة ضد امتناع بعض الوزراء وقتئذ عن تنفيذ الأحكام التى تصدر من مجلس الدولة ، ووصم هذا الامتناع بأنه مخالفة قانونية خطيرة لأصل من الأصول التى تمليها المبادئ الدستورية العليا ، وقضى بأن هذا يعد خطأ جسيما يندرج تحت الجرائم التى يعاقب عليها جنائيا ، ويعد خطأ الوزير الذى يقدم على ذلك مستوجبا لمسئوليته الذاتية فى ماله الخاص عن التعويض المطالب به دون خزانة الدولة .

وتفيض أعداد مجلة مجلس الدولة فى عهده بأحكامه وقراراته العادلة الحكيمة ، وتروى مواقفه الحازمة الجريئة ضد تحدى بعض الحكومات التى كانت تضيق به ذرعا فى أوائل عهده ، وتحاول أن تحمله على التخلى عن منصبه . ولكنه ظل كالطود الراسخ مؤمنا بمبادئه السامية المحايدة بعيدا عن التحيز أو الغرض لايعبأ بالتحدى وتعطيل وجوه الإصلاح التى كان يقترحها للنهوض بالمجلس.

أن ذكراه العطرة فى مجلس الدولة تحدث عن مثل عال ضربه لما يجب أن يكون عليه القاضى من النزاهة والعدل ، فلايخشى فى الحق لومة لائم ولايطأطئ رأسه لصاحب النفوذ مهماعلا قدره وأمعن فى عتوه وعدوانه. وقد قرأت للسيد ضياء شيت خطاب رئيس ديوان التدوين القانونى بالعراق أن إحدى الصحف البريطانية قالت فى تعليق لها على أحكام المرحوم السنهورى : «ليت فى بريطانيا قضاة مثل هذا الرجل » .

وإلى جانب نشاطه القانونى الفياض علما وعملا كان له نشاط فى ميدان الإدارة والسياسة فقد عين وكيلا لوزارة العدل كما عين وكيلا لوزارة المعارف ثم وزيرا لها مرتين . وكان فى كل هذه المراحل هو هو معدنه الأصيل لايتغير ، هدفه المصلحة العامة أولا وآخرا مضحيا فى ذلك بمصالحه الخاصة وبراحته ، وتصرفاته فى مختلف الشؤون والمشكلات لايبغى من ورائها إلا وجه الحق والإنصاف ، لايقعده فى هذا السبيل أية اعتبارات مهما كان شأنها . وقد ترك فى وزارة المعارف آثارا جليلة . وكان من أول ماعنى به وضع سياسة ثابتة للتعليم يكون قوامها إنصاف المعلم وتوفير الاستقرار والكرامة له مع توسيع قاعدة التعليم وتوجيه الطلاب إلى مايتلاءم مع احتياجات المجتمع من أنواع التعليم الفنى ، الزراعى والصناعى ، الذى لاجدال فى أنه دعامة أساسية لتقوية البنيان الاقتصادى للدولة . كذلك عمل على دعم سلطة المناطق التعليمية واستقلالها ، كما عنى كل العناية بالتوسع فى إنشاء دور التعليم المصرية فى السودان .

هذا وقد أوفد إلى مؤتمرات دولية عديدة. ففضلا عن المؤتمرات القانونية التى شهدها ، كان رئيس الوفد المصرى إلى لندن فى مؤتمر فلسطين سنة ١٩٤٦ ورئيس الوفد المصرى فى الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٦ وعضوا فى الوفد المصرى الذى تقدم بشكوى مصر ضد إنجلترا أمام مجلس الأمن سنة ١٩٤٧ .

ويتوج هذه المواهب النادرة والمناقب التي ذكرتها ماكان للفقيد العزيز من شأوعظيم فى مجال اللغة وآدابها . فقد أوتى حظا كبيرا فى تحصيلها ، وبدا ذلك جليا رائعا فى مؤلفاته وعديد كتاباته . وهو دون أدنى ريب فى طليعة الأفذاذ فى أدب العبارة فى القانون . يمتاز أسلوبه بالرصانة والأحكام والسلاسة ، وكان مجددا فى تعبيراته التى يستعملها موفقا فى اصطلاحاته التى يبتكرها . كان مثلا فريدا فى بلاغة الأداء وسهولة التعبير . وستظل مؤلفاته وكتاباته نموذجا يحتذى فى حسن البيان والإفصاح عن المراد فى عالم القانون .

وقد حظى مجمعنا بانضمامه إليه فى سنة ١٩٤٦ فأسهم بآرائه واقتراحاته الناضجة . وقد عرض فكرته حول تطور لغتنا العربية ومسايرتها لتطور المجتمع وحاجياته فى مؤتمرات المجمع .

ومما ذكره فى ذلك المقام قوله فى مؤتمر عام ١٩٤٨ مايأتى :

« اللغة العربية ليست مقصورة على ماقاله أسلافنا وأجدادنا فى العصور السابقة ، بل هى تتسع لتشمل ما نقوله نحن فى عصرنا الحاضر . ولايملك الأموات من هذه اللغة أكثر مما يملك الأحياء » .

ثم يستطرد ويقول :

« هناك وجه شبه حقيقى فيما بين اللغة العربية والفقه الإسلامى ، هو فى أن الفقه واللغة على السواء مصادرهما واحدة . مصادر الفقه الإسلامى كما تعلمون الكتاب والسنة ، أى النص ، ثم القياس والإجماع . ومصادر اللغة العربية هى أيضا النص ، وهو هنا ينحصر فى هذه الألفاظ والعبارات التوقيفية التى ورثناها عن أجدادنا الأولين والتى يأبى بعض منا إلا أن يقف عندها ، وهم فى ذلك يعتبرون أهل الظاهر فى اللغة ويقابلون أهل الظاهر فى الفقه . ثم القياس ، وبه يقول فيما أعلم جمهور الزملاء فى المجمع ، فيستنبطون صيغة من أخرى سماعا وقياسا ، ويشتقون وينحتون . ثم الإجماع وهذا هو المصدر الذى أحب أن أسترعى إليه أنظاركم ، فإن الإجماع فى اللغة كالإجماع فى الفقه مصدر جوهرى ، وهو الذى يكفل التطور فى اللغة كما كفل التطور فى الفقه . وقد لايريد بعض منا أن يعترف بهذا المصدر أو يقره . ولكنه مصدر يفرض نفسه ، وتحتمه سنن الوجود ، ويقتضيه القانون الطبيعى . واللغة التى لايعترف بالإجماع مصدرا لها لغة لاتلبث أن تنطوى على نفسها ، ثم تذبل وتموت ؛ والذين ينكرون الإجماع مصدرا للغة ، ينكرون على هذه اللغة أن تعيش .

والإجماع معناه حق المساواة مابين السلف والخلف . وهو حق هؤلاء جميعا فى أن يصنعوا لغتهم على قدر حاجتهم ، فيكون لكل جيل نصيب فى ذلك . وكما أن الذى يراه المسلمون فى الفقه حسنا فهو عند الله حسن ، كذلك مايراه الناطقون بالعربية

فى جيل من الأجيال حسنا فهو فى اللغة حسن .

لانستطيع أن ننكر على أى جيل حقه فى أن يساهم فى صنع لغته ، وفى أن يبتدع من الألفاظ مايفى بحاجاته ، ومايتمشى مع حضارته ، ومتى فعل ذلك فإن الألفاظ التى ابتدعها تكسب مكانا مشروعا فى اللغة لايجوز لأحد إنكاره . »

هذا هو النابغة العظيم الذى نفتقده اليوم . كان منارا للعلم وداعية للحق ، ومعلما أمينا ارتوى من فيض علمه قولا وكتابة آلاف الطالبين والباحثين . كان نورا تجلى فى سماء البلاد العربية كافة ، أضاء لها سبل الحياة عن طريق القانون ، وعاملا على التأليف بين قلوب أبنائها وتوحيد تفكيرهم والتقريب فى الأخذ والعطاء بينهم .

وقد رأت الدولة حلو كعبه وسمو منزلته فمنحته أخيرا سنة ١٩٧٠ جائزة الدولة التقديرية تكريما له واعترافا بفضله . والسنهورى من ذلك الطراز الذى ترتفع به الوظائف وتزدان به الحوائز . وهو من حيث تقدير العارفين فى سائر الوطن العربى فى أعلى عليين .

ولئن غاب شخصه الكريم عنا فستظل ذكراه خالدة أمد السنين ، وسيظل المرشد الأمين والحكيم الصائب الرأى ، يستنجد بتراثه وينهل منه الطالبون والمدافعون والقضاة والمشرعون ، ويحتكم إلى سداد رأيه المتنازعون والمتقاضون . فهو السند الأمين لصاحب الحق ، ومطلع النور فى الظلمات الخصومة ، وصائب الرأى مأفتى به وما قاله السنهورى .

رحمه الله رحمة واسعة وأنزله فسيح جناته فى عداد الأبرار الأخيار المخلصين .

• • قصيدة الأستاذ محمد عزيز اباظة

ظُلِمَ الموتُ ؛ إنَّ فى أحضانِهْ ... الحليم الذى يتوج بالغفرا

مَرْفَأً للغريق فى أشجانِهْ ... ن آلاءه على عبُدانه[1]

ومَجازاً إلى جوار طهـــور ... كل حىّ فانٍ . وما الحَىُّ إلااللـ

ساكب حوله سنا رحمانه ... ــه فى حوله وفى سلطانه

---

(١) عبدان وعبيد جمع عبد

والردى راصد . وكل ابن أنثى … راضَ للباحثينَ جامحَه الصَّعْـ
بين فكَّيْـه مُنْظَرٌ لأوانه … بَ وأرخى لهم عَصِيَّ عِنانِه
يتلقى الصباح فى أردانـه … وحَباهم من المراجعِ بالغَيْـ
ويراه المَساءُ فى أكفانِه … ـثِ تُضِيءُ الشُّروحُ فى هَطَلانه
ما الحياة التى نعيش غرور … مُغْنِياتٍ عن غيرهِنَّ جَـلاهُ
نحن نلتذه على بهتـانه … نٌ بعيدُ الآفاقِ من إمْكانِـه
إن حب البقاء غَشَّى على المو … صادِراتٍ عن رأيه . لايَسُوقُ الـ
ت وحض الورى على نسيانه … حُكْمَ إلاَّ إن صَحَّ فى مِيزانِه
غَيَّبَ الموتُ شافعيَّ[1] زمانهْ … جهد فردٍ تَعْيَا المَجامِعُ ذاتُ الـ
وأصاب القانونَ فى بُرهانهْ … ـعَزْمِ عن صوفه وعن إتْقانه
يعظم الخطب فى العظيم إذا لم … صَفْوَةُ القول أنه عَبْقرىٌّ الـ
يَرْقَ راقٍ إلى عَوالِى مكانهْ … ـجيل غيرُ المسبوقِ فى مَيْدانه
نَكَّسَ الفقهُ رأسَه يوم أوْدَى … ذو حَياءٍ فى فَضْلهِ حين بعضُ الـ
وانطَوَى سامداً[2] على أحزانه … خَلْقِ ذو خَيْلَة[4] على نُقْصانِه
أى صافٍ منه تدافَعَ سهلا … جَمَّعَ الشرقَ وحده فتَلاقَى
مُعْجِزاً من جَنانه لبَنانه … فى ديابيج علمه وبيانه
صاحَبَ الفقه منذ هَلَّ صِبَا الفقْـ … من أقاصى خَليجه لدمَشْقٍ
ـه إلى أن أشعَّ[3] فى رَيْعانه … من طَرابُلْسه إلى بَغْدانه[5]

---

(١) الإشارة الإمام الشافعى رضى الله عنه
(٢) السامد : المبهوت المتحير
(٣) أشعت الشمس : تلألأ نورها
(٤) الخيلة : الكبر والعجب
(٥) إشارة إلى أن الفقيد هو الذى سن قوانين الكويت وليبيا وسورية والعراق وغيرها .

وطوى العرب عند ضاف من التّقْ
نين أعلى وشَدَّ من أركانه

فجَنَوْا من نَضيرِ بسْتانه الفيْـ
نان أبْهَى ما رَفَّ من ألْوانه

وانْتَشَوْا من رَحيقِ راووقه[1] العَذْ
بِ وضمُّوا الصفوفَ حولَ دِنانه

لَمَّ من شَملهم طراز من التَّشـ
ـريع باتُوا فى أمْنه وضَمانِـه

ثم عادُوا إلى التَّخاذُل مُفْتَنَّـ
ـينَ فى خَلْقه وفى إعْلانِـه

آه لو يُخْلِصُون لانْبَعَثَ الشرْ
قُ ورُدَّتْ له نباهةُ شـأنه

اخْتلاف الآراء قد يَلِدُ الخَيـ
ـرَ ويبنى إن عُفَّ عن شنآنه

إن هذى الحَياةَ وهى صِراعٌ
لم تُوطَّأْ لقابعٍ فى هَوانِـه

رُبَّ ومضٍ مُبَشِّر لاح فى الأفـ
ـقِ سَنَبْلُو غداً مَدَى لمَعانـهْ

نَهْنِهُوا الحُزْنَ إنه فى رُفاتِـه
حُطَّ عنه ما مَضَّهُ فى حَياتهْ

حُطَّ عنه الأذَى يُشَنُّ فَيَشْقَى الـ
حُرُّ فى وَقْدِه وفى لَفَحاتِـهْ

سادنُ العدْلِ أعرض العَذْلُ عنه
ساخراً من يَقينه وحَصاته

رأيه الحُرُّ عُدَّ من سَيِّآتِـهْ
والإباءُ الوَقُورُ من سَقَطاته

وعظيمُ الرجال يُغْرَى به الحَقـ
ـدُ فيُضْفى السَّنا على حَسَناته

حَسَدُ الحاسدينَ يُغْضِى عن السَّفْ
ح ويَرقى للطودِ فى شُرفاتِه

إنَّ رأىَ الإنسان ضربٌ من العِرْ
ضِ ، هما الأكْرمانِ من حُرُماتِهْ

فإذا ساقَه اسْتَطارَتْ قُوى الشَّـ
رِّ فَالْوَتْ برزْقِه أو بذاتِهْ

وإذا البَغْىُ لم تُزلْهُ فأمْهلْـ
ـهُ تَفُلَّ الأيامُ حَدَّ شَباتِهْ

ليس حُكْماً ؛ حُكْمٌ يَشُقُّ من الإرْ
هاب مَهْواتَه إلى شَهَواتِهْ

***

(١) الراووق : المصفاة .

ليس شَعْباً ، شَعْبٌ يقرُّ على الضَّـ
ـيم ويشفِى غَليلَه فى نِكاتِهْ

إيهِ عَبْدَ الرَّزَّاقِ أَضْفَى عليكَ اللـ
ـهُ من فَضْلِهِ ومن رَحَمَاتِه

وتَولاَّك من رضاهُ بفَيْض
يَتَوالى عليكَ فى جَنَّاتِهْ

يُكْرِمُ اللهُ نافِعَ الناسِ قَبْلَ الـ
ـمُنْطَوِى فى صِيامِه وصَلاتِهْ

جَزِع المجمَعُ الوَقُورُ وهَلْ يَجْـ
ـزَعُ إلاَّ للصُّمِّ من نَكَباتهْ

كادَ لولا حياؤُه وجلالُ الـ
ـعِلْمِ يروى أساهُ فى عَبَراتِهْ

لم يمت عالم جَماهِيرُ أَهْلِ الـ
ـفِقْهِ مهما يَتَشَعَّبُوا مِن رُواته

لا ، ولا المَشْرَعُ الخِضَمُّ الذى فـ
ـجَّرت للشرق فاسْتَقَى من فُراته

أَنْتَ حَيٌّ وإن طَوَتْكَ المَنايا
ومن الناس مَيِّتٌ فى حَياتِهْ

كلمة الأسرة للأستاذ حنفى محمود الفزارى

أساتذتى الأجلاء :

سيداتى وسادتى :

يؤسفنى أن تغيب عن هذا الحفل كريمة الراحل العظيم؛ إذ هى فى خارج البلاد تواصل دراساتها العليا فى صحبة السيدة والدتها .

ولقد أريد لهذا الحفل أن يكون حفل تأبين للفقيد الكبير ، ولكنكم استطعتم بشرف حضوركم وأنتم الصفوة المختارة من رجال العلم والقانون وما دوى فى أرجائه من كلمات الخطباء الأجلاء ، تلك الكلمات الفياضة بكل معانى الإجلال والإكبار ، الزاخرة بكل عواطف الوفاء والإخلاص — أن تجعلوا منه حفلا يمدنا بأسباب الزهو به ؛ فقد أصبحنا أسرة أخرجت إلى الأمة عظيما من عظمائها .

على أن الراحل العظيم لم يكن فردا فى أسرة وإنما كان واحدا فى أمة ، عاش حياته يعمل لها وينشر فقهه ، ويطوف ببلاد الأمة العربية يضع دساتيرها وقوانينها ليقيم أقوى عناصر الوحدة بينها .

ولقد سعى سعيه يبتغى الحياة فى مواجهة الموت، فدانت له الحياة، وبقى ببقاء فقهه وعلمه وإن ذهب عنها كما يذهب أصحاب الرسالات؛ فالراحل العظيم من هذا ينتمى إلى أسرته القانونية التى ظل عقله ينبض بحبها، مكرسا حياته لها. وليس أمامى إلا أن أعترف بأنه فقيدكم قبل أن يكون فقيدنا .

لقد كان يغالب عدوا واحدا هو الزمن فقد كان يسابقه خشية أن يحين الأجل قبل أن يفرغ من تدوين علمه وفقهه .

ومعذرة إذا رأيتم أن هذه الكلمة قد خالطها لسان واحد من تلاميذه فوق لسان واحد من أسرته؛ إذ أن أمجاد الرجل العظيم هى حديث أمته لا حديث أسرته .

ويكفينا — نحن أسرته — أن يكون لنا شرف الانتساب إليه .

أطال الله بقاءكم، وجزاكم عنا خير الجزاء .

اقام المجمع فى دار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع فى الساعة السادسة من مساء الثلاثاء ٣٠ من ذى الحجة سنة ١٣٩١هـ الموافق ١٥ من فبراير سنة ١٩٧٢ ، حفل تأبين للدكتور قدرى حافظ طوقان عضو المجمع من الاردن . وفيما يلى ما القى فى الحفل:

كلمة الأستاذ زكى المهندس فى تأبين المرحوم

الدكتور قدرى حافظ طوقان

سادتى

إنه ليعز علينا أن نجتمع الليلة لتأبين زميل كريم وعالم جليل هو المغفور له الأستاذ الدكتور قدرى حافظ طوقان .

لقد تركت وفاته فى نفوسنا الحزن ، وأعمق الأسى ؛

لقد كان رحمه الله — يتابع أعمال المجمع عن كثب ، وكان عاملا نشيطاً يمدنا بكثير من بحوثه ومقالاته ، وقد نشرنا له فى مجموعة البحوث ثلاثة لها بحوث قيمتها وأثرها .

على أن الفجيعة فى طوقان ، ليست فجيعة المجمع وحده ، أنها فجيعة الأمة العربية بأسرها لأنها فجيعة العلم والعلماء فى كل قطر عربى.

لقد استطاع — طيب الله ثراه — بمؤلفاته ومقالاته أن يجلو أمامنا أمجاد العرب العلمية ، وأن يؤكد لنا ما سبق أن أكده بعض المنصفين من علماء الغرب من أن الطريقة الحديثة فى البحث العلمى مدينة بنشأتها وتنظيمها لجهود علماء العرب .

فى الوقت الذى كانت فيه أمريكا لا تزال فى عالم الخفاء وكانت أوربا لا تزال تعيش فى جهالة جهلاء ؛ وظلمة عمياء ، كانت للعرب طاقات علمية مبدعة خلاقة ، تبحث وتحلل وتلاحظ وتجرب وتصل إلى نتائج علمية ، كان لها أثرها وخطارها فى نهضة أوروبا .

على أن الفقيد — رحمه الله — كان من رجال العلم القلائل الذين اجتمعت لهم دقة العالم وخيال الأديب ، وعهدنا بكثير من رجال العلم أنهم لا يحفلون بالأدب ، ولا يقيمون له وزناً فى حياتهم ، ولكن فقيدنا — رحمه الله — كان يعنى بالأدب عنايته بالعلم ، كان عالماً أديباً ، أو أديباً عالماً . وإذا كان العلم يمثل العقل الإنسانى فى أعمق صوره ، فإن الأدب يمثل العاطفة الإنسانية فى أنبل صورها ومظاهرها .

لهذا كان الفقيد يعنى بالأدب عنايته بالعلم. إن النزعة الأدبية لم تفارقه حتى وهو يعالج مسائل العلم . فإذا كان العلم من شأنه أن يدربنا على التفكير المنطقى وعلى التماس الحق ،

وعدم الاسترسال مع العواطف ، ويكشف لنا عن أسرار الكون وأعاجيبه ، فإن الأدب يعالج النفس الانسانية فى جميع مظاهرها ويضيء فى نفوسنا تلك الجوانب المظلمة. وهو كذلك يغنى على أذواقنا رقياً وتهذيباً وجمالا .

ويحضرنى فى هذه المناسبة كلمة قالها (داروين) وهو العالم المشهور صاحب نظرية أصل الأنواع ، قال فى أسى وحسره ما معناه : إن كثرة مزاولتى للعلم قد أفقدتنى القدرة على تذوق الشعر والأدب حتى لقد حاولت أن أقرأ شيئاً لشكسبير فلم أظفر منه بطائل ، ولئن أتيح لى أن أبدأ حياتى مرة أخرى لأفرضن على نفسى قراءة الأدب والشعر كل يوم .

رحم الله الفقيد وجزاه عما قدم للأمة العربية بخير ما يجزى به عباده المخلصين العاملين . أما الآن أيها السادة — فسيتولى تأبين الفقيد نيابة عن المجمع الزميل الدكتور عبد الحليم منتصر ، فليتفضل مشكوراً .

• • كلمة الدكتور عبد الحليم منتصر

لعمرى لئن خطفتك المنايا
ووارتك تحت ظلام الحفر
فما زلت فى كل نفس تعيش
عبيرا زكا وضياء غمر

أيها السادة :

يعز على نفسى جدا ، أن أقف فى مكانى هذا ، مؤبناً صديق العمر ، زميلنا وفقيدنا العظيم الدكتور قدرى طوقان الذى شارك فى جميع المؤتمرات العلمية العربية التى عقدت فى العواصم العربية ، وكان خير سفير علمى للفكر العربى فى الدول الأجنبية ، وقف حياته على الدراسة والبحث الخصب ، وأنشأ مكتبة تضم الألوف من الكتب والمخطوطات النادرة ، وكتب ونشر وأذاع مئات المقالات والأحاديث والمحاضرات فى كثير من الحواضر العربية والأجنبية .

لقد كنا فى مطلع نهضتنا العلمية ننقل المعرفة عن غيرنا نقلا ، ونظن أنها علوم مستوردة كلها من الخارج ، حتى جاءت المدرسة العظيمة والشجرة الباسقة يتزعمها المرحومون مصطفى نظيف وعلى مشرفة وعبدالحميد حمدى والأمير مصطفى الشهابى وقدرى طوقان وأصواتهم تجلجل فى المؤتمرات العلمية مصححة تاريخنا العلمى ومطعمة شجرة المعرفة لدى الأجيال الصاعدة بثقافة علمية عربية أصيلة ، وغدت أسماء ابن سينا وابن الهيثم والخوارزمى والبيرونى والصوفى وابن يونس والخازن

وجابر وغيرهم كثير . غدت مألوفة لدينا وغدا فضلهم معترفاً به بيننا ، وعرفنا أننا لسنا دخلاء على المعرفة العلمية وإنما نحن أهل أصالة فيهـا ، وقدرنا فضـل هؤلاء على النهضة العلمية العالمية ، هذا الفضل الذى اعترف به المنصفون من الأجانب ، فقالوا إن الحضارة المصرية القديمة هى ينبوع الحضارات جميعاً وإن الحضارة العربية الإسلامية هى النبع الأصيل للعلوم الطبيعية من كيمياء وطبيعة ورياضيات وفلك وطب ونبات وحيوان ومعادن ، هى النبع الذى تزودت منه النهضة العلمية الأوربية وإن العلماء العرب فى العصر الإسلامى هم الذين قدموا لأوروبا زاد نهضتها العلمية . ومن الحق أن نقول إن فقيدنا العظيم كان أيسر هؤلاء حركة وانتقالا بين العواصم الأوروبية والعربية ، فكان خير سفير للفكر العلمى العربى فى كل رجا من أرجاء العالم حملته إياه قدماه . ويفضل هؤلاء الأعلام امتدت جذور شجرة ثقافتنا العلمية إلى منابعها الأصيلة ، وأصولها العربية العميقة ، فاستقام عودها وامتدت فروعها ، وكثفت أوراقها واخضوضرت براعم وأغصانا ، وعرفنا فضل الخوارزمى على الحساب والجبر وأن ابن مسكوية وابن خلدون وإخوان الصفا ، قد سبقوا داروين ولا مارك فى القول بالتطور وأثر البيئة على الأحياء ، وأن الخازن قد سبق تورشيلى ونيوتن ، فى القول بالجاذبية ، وأن ابن الهيثم قد سبق ديكارت وغيره فى الضوء ونظرياته .

وأن جابراً أول من أسس الكيمياء على دعائم التجربة الصحيحة الدقيقة ، وأن الصوفى كان نقطة تحول فى علم الفلك ، وأن الرازى وابن سينا والزهراوى كانوا بمثابة المصابيح التى أضاءت منها أوروبا قناديلها فى القرون الوسطى فى علوم الطب ، وأن ابن النفيس قد سبق هارفى فى كشف الدورة الدموية الصغرى ، وأن الجاحظ لم يكن إماما من أئمة الأدب فحسب بل إنه لإمام فى العلم التجريبى كذلك بما أجرى من تجارب علمية على الحيوان . وان ابن الهيثم سبق باكون فى القول بالطريقة العلمية ، وأن ابن يونس مكتشف البندول لا جليليو كما يقال عادة . وأن ماتعرفه أوروبا باسم قاعدة البيرونى أو معادلة البيرونى لإيجاد نصف قطر الأرض ، إنما هو فضل يجب أن يعرفه أبناؤنا ومن الخير أن نذكر أن فقيدنا العظيم كان الفارس المجلى فى هذا الميدان ، ميدان تحقيق التراث العلمى العربى والتعريف به فيقول : إن الروح العلمية عند العلماء العرب والمسلمين ، إنما تتجلى فى إخلاصهم للحقيقة ، وتمجيدهم للعقل ، والتقيد بأحكامه ، مما دفعهم فى كثير من الأحيان إلى مخالفة فلاسفة اليونان .

كما ظهرت روحهم العلمية ، فى عدم إيمان كثير منهم بالتنجيم والدعوة إلى إبطال نظريات تحويل المعادن إلى ذهب وأنهم يدفعون إلى صميم الموضوع فى دقة وإيجاز وضبط وإحكام ، تسيطر على هذا كله روح علمية صحيحة وكذلك امتاز أسلوب

الفارابى المعلم الثانى ، وابن سينا المعلم الثالث بالعمق والدقة والاعتماد على المنطق لأنه الآلة العاصمة للذهن من الخطأ ، ومع اعترافهما بفضل المعلم الأول أرسطو ، إلا أنهما يخالفانه فى أشياء ويقولان إنه لا ينبغى أن يختار على الحق . ويورد اعتراف باكون بابن رشد كفيلسوف يتعمق ، صحح كثيرا من أغلاط الفكر وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة لايستغنى بها عنها لسواها . وأدرك كثيرا مما لم يكن قبله معلوما لأحد . وأزال الغموض من كثير من الكتب التى يتناولها بحثه وأثبت أن الغرب اقتبس فلسفة ابن رشد ، وكان من حسناتها أن حلت عقال الفكر الأوروبى ، وفتحت أمامه أبواب البحث والمناقشة على مصاريعها ، وكيف أن الغزالى قد جعل أول شرائط البحث عن الحقيقة أن يكون الباحث ذا عقل مستقل تماما ، فالحقيقة لايمكن الوصول إليها إلا عن طريق بحث حر مختار . وقد ندد فى جميع أعماله وبحوثه بالتفكير الموسوم بالتبعية والتقليد .

ويورد أقوالا مشابهة كثيرة لابن الهيثم والكندى والبيرونى ، يتحدث عن شجاعة البيرونى الفكرية وحبـــه للاطلاع العلمى ، وبعده عن التوهم وإخلاصه للحقيقة وتسامحه . ويبين كيف أنه كان فى الواقع عبقريا مبدعا ، ذا بصيرة شاملة نافذة . وقول ابن طفيل بأهمية التجارب وأن أسرار العالم العربى المادى لا تفهم ولا تعرف إلا عن طريق التجارب المتكررة بعد الملاحظة وإعمـــال العقل ، فالاشتغال بالأمور المادية والصناعات والعلوم هى الخطوة الطبيعية الأولى فى سبيل الكمال الروحى ، ودعوة ابن خلدون أن يفكر العالم فيما تؤدى إليه التجربة الحسية ، وكيف حارب التنجيم بالأدلة العقلية، وقوله إن الاشتغال بالكيمياء قصد الحصول على الذهب مضيعة للوقت ، قد انتحلها واشتغل بها بعض العاجزين عن معاشهم بالطرق الطبيعية وابتغاء المعاش من غير وجوهه الطبيعية .

وإن فقيدنا العظيم ليدعو الأمة العربية إلى الأخذ بالروح العلمية التى تجلت فى التراث العربى عند العلماء العرب والمسلمين تلك الروح التى تمجد العقل وتدعو إلى التجربة والتجديد واحترام الأمانة العلمية والإخلاص للحق والحقيقة ، وتقديس حرية الفكر والانعتاق من أغلال التقليد وتدفع إلى التطور ، وبذلك يدفع المجتمع العربى إلى التقدم المستمر والنمو المتواصل ، وتحول دون تعطيل العقل وتجميده ؛ فينطلق متحركا خلاقا منتجاً فى سائر ميادين الحياة . ويذهب فقيدنا العظيم فى بحثه عن فاعلية الفكر العربى فى نقد الفكر اليونانى ، إلى أن الحضارة العربية ظاهرة طبيعية ليس فيها شذوذ أو خروج عن منطق التاريخ ، فلم يكن بد من قيامها حين قامت ، فقد قام أصحابها العرب بدورهم فى تقدم الفكر وتطوره بأقصى الحماسة والفهم ؛ ولم يكونوا مجرد ناقلين كما قال بعض المؤرخين ، بل

إن فى نقلهم روحا وحياة ، وكذلك لم يكن ميكانيكيا فهو أبعد ما يكون عن الجمود .

ففى فلسفتهم عناصر يونانية وهندية وفارسية ، ثم إن فيها ثمرات عبقرية أهلها ، خالفوا أرسطو وأفلاطون وجالينوس — وبطليموس. ويؤيد ماذهب إليه سارتون بأنه لو لم ينقل إلينا العرب كنوز الحكمة اليونانية ويحافظوا عليها ، لتأخر سير المدنية عدة قرون ، وأنه كان لا بد من ظهور ابن الهيثم والبيرونى والصوفى حتى يتسنى ظهور جاليليو وكبلروكوبرنيق . وأنه اولا أعمال العلماء العرب لاضطر علماء النهضة أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر سير المدنية . وأن العرب كانوا أعظم معلمين فى العالم وأنهم قد نقدوا واتقنوا وعملوا على تحسين وتصحيح وإنماء التراث اليونانى حتى سلموه إلى العصور الحديثة ، وما كان التحسين ، والتصحيح والإنماء ليتم لولا النقد والتمحيص . فقد وضعوا الكتب والمقالات فى الشكوك على بطليموس وتصحيح أغلاط أرسطو وجالينوس وأفلاطون .

ويورد قول ابن الهيثم فى الشكوك على بطليموس : « الحق مطلوب لذاته ، وكل مطلوب لذاته فليس يعنى طالبه غير وجوده ووجود الحق صعب والطريق إليه وعر » ، ولما نظرنا فى كتب الرجل المشهور بالفضيلة ، يعنى بطليموس القلوذى ، وجدنا فيها علوما كثيرة ، ولما درسناها وميزناها ، وجدنا فيها مواضع مشبهة وألفاظا بشعة ومعانى متناقضة إلا أنها يسيره فى جنب ما أصاب فيه من المعانى الصحيحة ، ورأينا فى الإمساك عنها هضما للحق وتعديا عليه ويعرض لآراء الكندى الحريثة فى نشأة الحياة على الأرض وفى زرقة السماء الناشئة من انعكاس الضوء على ذرات الغبار وبخار الماء العالق بالجو ، وأثر القمر فى حركة المد والجزر ، ولآراء ابن حزم فى أثر النجوم والكواكب ، وقوله: ليس لها تأثير فى أعمالنا ، ولا لها عقل تدبرنا به إلا إذا كان المقصود أنها تدبرنا طبيعيا كتدبير الغذاء لنا وكتدبير الماء والهواء ونحو أثرها فى المد والجزر ، وكتأثير الشمس فى عكس الحر وتصعيد الرطوبات . والنجوم لا تدلل على الحوادث المقبلة — وبين كيف أن ابن الهيثم قد قلب الأوضاع القديمة وأنشأ علما جديدا ، فقد أبطل علم المناظر وأنشأ علم الضوء بالمعنى الحديث وبالحدود والأصول التى نريدها الآن ، وأن أثر ابن الهيثم فى هذا لايقل خطورة عن أثر نيوتن فى الميكانيكا ويشرح رأى ابن طفيل ومخالفته للكثيرين من معاصريه ومن الذين سبقوه من فلاسفة اليونان ، إذ قال بوحدة القوانين والأنظمة الكونية وشمولها ، مما يسيطر على النبات والماء والهواء والجماد يسيطر على الحيوان والإنسان وسائر الموجودات ، وأن العالم بجملته كشىء واحد يتصل بعضه ببعض ويتحرك فى دائرة من الأنظمة والقوانين لا يخرج عليها ولا يشذ عنها .

ويتابع عالمنا عرض هذه الصفحات المشرقة من التراث العلمي العربي ، موضحا أن العرب لم يكونوا مجرد نقلة أو مقلدين وأنهم لم يصبهم شلل الفكر ، بل لجأوا إلى العقل فجعلوه المرجع والأساس ولجأوا كذلك للامتحان والتجربة والدرس والبحث ، فنفذوا نظريات وآراء فلاسفة اليونان وعلماء الإسكندرية وخالفوهم فى القضايا والأحكام ، وعدلوا بعضها وصححوا بعضها الآخر ، ولم يعبأوا بالمصدر أو القائل ، بل ركزوا عنايتهم واهتمامهم بالنظرية أو الرأى والقول ، ولهذا أضافوا إلى المعرفة الإنسانية إضافات هامة ، يرى فيها المنصفون من الثقات والباحثين الغربيين عملا هاما من عوامل التقدم العلمى والنهضة العلمية الحديثة ، حتى قال دى فو : إن الميراث الذى تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام عليه ، أما العرب فقد أتقنوه وعملوا على تحسينه وإنمائه حتى سلموه إلى العصور الحديثة . وكذلك ظل عالمنا يردد هذه الآراء فى المؤتمرات والمحافل التى كان يرتادها ممثلا الأردن ، بل الدول العربية جمعاء على مدى ربع قرن من الزمان ، وما أشك فى أنه نجح إلى أبعد الحدود فى تبيان فضل العرب على الحضارة العلمية . ولابد لى من الإشارة إلى دور فقيدنا العظيم فى إنشاء الاتحاد العلمى العربى ومحاضراته فى مؤتمراته المختلفة ، وكانت شعبة الأردن أو الاتحاد العلمى الأردنى ، أول شعبة تتكون فى هذا الاتحاد ، وكيف شارك فى اجتماع اللجنة التأسيسية فى بيت مرى بلبنان ، وكان رحمات الله عليه لايفتأ يدعو إلى التعاون العلمى بين العلماء والباحثين فى العالم العربى باعتباره عنصرا أساسيا فى نهضة العلم وأنه لا يمكن للبلاد أن تتقدم ولا أن يرقى مستواها المادى والاجتماعى إلا على أسس علمية سليمة وأن هذه المؤتمرات دلت على وعى علمى كما أنها تنبيه للشعوب العربية بأن العلم هو القوة الفعالة التى تنقل العرب إلى آفاق جديدة ، تحررهم من الماضى ومقاييسه ، وأنه طريق الرخاء والصحة وهو القوة بجميع معانيها .

أما روحه المرحة ، فقد كانت طبيعة فيه لا اصطناع فيها ، ولذا كان نجم كل مؤتمر وكل ندوة وكل اجتماع ، إنه مركز الاشعاع والإشراق الذى يتحلق حوله المجتمعون ، يستمتعون بحلو حديثه وطريف تعليقاته وعمق فكره وآرائه ، إنه الرفيق الذى لا تمل صحبته أبداً ولا تشبع من عذب حديثه أبداً . وهو فى العيد الألفى لابن سينا كأنما تسمع متخصصا فى أعمال ابن سينا باحثا منقبا فى ابن سينا وأعماله العلمية ، وفى العيد الألفى للبيرونى كأنما هو الدارس المتخصص لأعمال البيرونى ، وحين يعرض لأعمال ابن الهيثم أو الكندى أو الرازى أو الصوفى أو الفارابى فكأنما صرف عمره كله فى دراسة مئات الدراسات والكتب التى تركها هؤلاء ، فهو يحيط بها إحاطة شاملة ويعرضها عرضا أميناً وافياً ، لا يكاد يترك منها شاردة ولا واردة ، إنما هى دراسة استقصائية يعرضها فى عمق وإيجاز .

وهو فى اشتغاله بالحركة الوطنية ، كأنما هو الزعيم الذى نيط به قيادة الحركة الوطنية ليسنم بلاده ذرا المجد والاستقلال ، كما كان داعية إلى اتحاد الشعوب العربية من المحيط إلى الخليج .

لقد ولد عالماً فى مدينة نابلس بالأردن سنة ١٩١٠ وتخرج فى الجامعة الأمريكية فى بيروت ١٩٢٩ متخصصاً فى العلوم الرياضية ومثل بلاده فى أكثر من خمسة وعشرين مؤتمرا علمياً وثقافياً وإنسانياً فى البلاد العربية والغربية فى سويسرا والهند والباكستان وإيطاليا وأسبانيا ومصر والكويت ولبنان والمغرب والعراق ودمشق وهو عضو فى المجمع العلمى العربى بدمشق والمجمع العلمي لدول البحر المتوسط بايطاليا ورئيس الجمعية الأردنية للعلوم وعضو اللجنة القومية وعضو مجلس الاتحاد العلمى العربى بالقاهرة وعضو مجلس أمناء الجامعة الأردنية وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ ١٩٦١ ، وانتخب نائباً للرئيس فى المؤتمرات العلمية العربية جميعاً ومؤتمر المفكرين فى لاهور ومؤتمر التعريب فى الرباط .

أما عن كرمه وبسطة يده ، فيكفى أن أذكر إصراره على دعوة وفد مصر فى مؤتمر الخريجين بالقدس فى الخمسينيات الوسطى . وكان يزيد على مائة وخمسين عضوا فلما راجعته فى ذلك ترك لى الخيار أن أدعو له من أشاء فدعوت نحو الخمسين .

أعد لهم رتلا من السيارات نقلتهم من القدس إلى نابلس ، حيث نعموا بكرم ضيافته وأمضوا يوماً لا أظن واحدا منهم ينسى قدرى الكريم المضياف صاحب المكتبة الزاخرة بالمؤلفات النادرة ولا المصانع التى يديرها ولا كلية النجاح التى يشرف عليها ، ولا هداياه الرمزية التى لا يفتأ يغمر بها أصفياءه وأصدقاءه .

أما وفاؤه لأصدقائه فلا أكاد أعرف له ندا فى هذا الوفاء ، فهو حين يحل مصر ، لا بد أن يتصل بأصدقائه وأن يزورهم ، وأن يحمل لهم التذكارات وفى الحق أن أصدقاءه هنا ، كانوا يبادلونه الود والوفاء ، فما يعلمون بوجوده بين ظهرانيهم حتى يهرعون إليه للتحية والسلام ، وما ذلك إلا أنه أهل لكل تقدير ووفاء .

لقد أذاع عالمنا عشرات الأحاديث العلمية فى الأقطار العربية والأوروبية ، وكتب العديد من المقالات وألقى الكثير من المحاضرات فى العلم والتوجيه العلمى .

ونال عالمنا أرفع الأوسمه من الأردن والمغرب ، كما نال وسام الجمهورية من الطبقة الأولى فى عيد العلم العاشر فى سنة ١٩٦٤ بالقاهرة ، وذلك تقديرا لجليل خدماته للعلم والقومية العربية ، ومنحته جامعة البنجاب فى الباكستان درجة الدكتوراه الفخرية عام ١٩٦٥ .

ولايتسع المقام لعرض أعماله العلمية ، ومعظمها يدور حول تراث العرب العلمى ، وله كتاب بهذا العنوان طبع ثلاث مرات ، عالج فيه أعمال العلماء العرب فى العصر الإسلامى ، أشاد فيه بأفضالهم على العلم والحضارة العلمية وقال بحق إنهم كانوا واسطة العقد بين العصرين الإغريقى والإسكندرى من ناحية وبين عصرى النهضة الأوروبية والعصر الحديث واستشهد بأقوال كثير من المستشرقين من أمثال سارتون ونيللينوو سميث وبرنال وغيرهم . وبين بما لا يدع مجالا للشك فضل الحضارة العربية على النهضة العلمية الأوروبية . ثم الأساوب العلمى عند العرب ، والنزعة العلمية فى التراث العربى والعلوم عند العرب وقد طبع عدة مرات ، ومقام العقل عند العرب ، وأثر العرب فى تقدم علم الفلك ونشاط العرب العلمى . ذلك إلى جانب مؤلفات ومحاضرات أخرى مثل نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية ، والكون العجيب ، وبين العلم والأدب ، وجمال الدين الأفغانى « والعيون فى العلم » « وبعد النكبة » ، و« وعى المستقبل » « والخالدون العرب » و « بين البقاء والفناء » « وابن حمزة والتمهيد إلى اللوغاريتمات ، كما ألقى أمامنا فى المجمع ثلاثة بحوث قيمة هى » الروح العلمية عند علماء العرب والمسلمين » ، و« التعاون بين العلماء والباحثين فى البلاد العربية » و« فعالية الفكر العربى فى نقد الفكر اليونانى » .

لقد عمل فقيدنا وزيرا للخارجية فى الأردن عام ١٩٦٤ ، وكان من أهم منجزات الوزارة حينذاك تحسين العلاقات بين الأردن ومصر وبقية الدول العربية ، وكانت طبيعته المرحة تتجافى ومقتضيات هذه المناصب ، فكان يصرف من يتولون حراسته سواء فى الأردن أو فى خارجه ثم أن طبيعته الصريحة والحرة إلى أبعد الحدود لم تتح له البقاء طويلا فى مثل هذه المناصب التى قد تحتاج إلى مؤهلات أخرى لم تكن متاحة لصاحبنا .

لقد عمل فقيدنا منذ تخرجه مدرساً بكلية النجاح الوطنية بنابلس ثم تولى إدارتها منذ خمس وعشرين سنة ، وإن هذه الكلية لمدينة لعالمنا بكل ما وصلت إليه من نجاح وازدهار وقد علمت أن إدارتها فكرت فى إقامة تمثال له يقوم على صنعه مثال مصرى . كم أرجو أن يتولى مجمعنا الدعوة إلى أن تسهم مصر فى نفقات صنع هذا التمثال وإقامته ، فقد كان فقيدنا مثالا فى عربيته ومتفانيا فى حب مصر والمصريين . وإنى لأقترح تخليدا لذكراه أن يتبنى المجمع الدعوة لإنشاء كرسى لتاريخ العلم عند العرب فى إحدى الجامعات العربية فى أى من البلاد العربية وليكن جامعة الأردن أو الجامعة العربية فى بيروت ؛

وكذلك عاش فقيدنا كتلة من النشاط والحركة والبحث والدرس والكتابة والنشر والسفر ، حتى وافاه القدر المحتوم وهو فى طريقه إلينا ظهريوم ٢٦ من فبراير ١٩٧١ ، اختطفه الموت فجأة فى بيروت وإن مقعده فى الطائرة التى تغادر بيروت إلى القاهرة لينتظره فى عصر نفس اليوم ، رحمه الله رحمة واسعة وأجزل له الثواب بقدر ما أعطى للعلم والأمة العربية وتراثها العلمى من خدمات ، وأحسن عزاء آله وذويه ومحبيه وعارفى فضله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛

في الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين ١٣ من المحرم سنة ١٣٩٢هـ الموافق ٢٨ من فبراير سنة ١٩٧٢ اقام المجمع فى داره حفل تأبين للأستاذ السير هاميلتون الكزاندر رسكين جب عضو المجمع من انجلترا ، وفيما يلى كلمة التأبين التى القيت فى الحفل :

كلمة الدكتور مهدى علام فى تأبين السير هاملتون أ.ر.جب

فى خريف سنة ١٩٢٥ ، فى مدخل مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، عرفنى الأستاذ سير توماس آرنولد بشاب سامق حيي هادئ الحركات ، يكاد يبدو مشغولا عن محدثه وقال لى : هذا مستر جب ، مساعدى فى تدريس اللغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية ولم يكن عملى يتصل بعمله مدة دراستى هناك ، ولكنا كنا نلتقى فى الفينة بعد الفينة لتبادل تحية قصيرة ، أو لحديث موجز عن أصل كلمة عربية .

وفى شتاء عام ١٩٢٨ ، وكنت قد عدت إلى مصر ، اتصل بى هذا الأستاذ ، فتقابلنا على فنجان شاى فى القاهرة ، وسارع إلى موضوع المقابلة ، سائلا عن مؤلفات بعض رجال الفكر المعاصرين فى مصر ، فذكرت له ما أعرفه منها ، مع تعليقات وجيزة عن رأيي فيها اعتقادا منى أنه كان يرغب فى هذه التعليقات . وحدث أننى لم أذكر مؤلفات عالم شهير فى ذلك الوقت ، فسألنى عنها ، فقلت له إننى لم أذكرها لأننى أعتقد أنها كتابات لا تهمك باعتبارك متخصصا فى الأدب العربى ، ولأنها فى رأيي كتابات كانت تمثل مرحلة قد انقضت فى حياتنا الثقافية ، وأنها ليست مما يشغل بال الأدباء اليوم .

وهنا أدركت لأول مرة أننى لم أكن أمام رجل يقصر بحثه على الأدب العربى ، بل كنت أمام أستاذ يؤرخ للفكر العربى الإسلامى ، فقد أخبرنى أنه لا يعنيه موضوع هذه الكتب ولا مدى قبول ما فيها من أفكار . إنه يبحث عن كل ما خطته أقلام المؤلفين فى مصر ليؤرخ له بل إن دائرة بحثه قد اتسعت ، كما نعرف من مؤلفاته التى أخرجها فى نحو نصف قرن بعد ذلك ، حتى شمل نشاطه العلمى السياسة والاجتماع والاقتصاد والدين ، ولم يحتل الأدب إلا منزلة لا تتميز عن سائر هذه الفروع من المعارف ، إن لم تكن أقلها .

وكادت الصلة تنقطع بيننا منذ ذلك اليوم ، حتى رأيت اسمه فى المرسوم الذى صدر فى السادس من أكتوبر سنة ١٩٣٢ بإنشاء مجمع اللغة العربية ، فاذا هو واحد من عشرين علما من أعلام اللغة العربية وأدبها ، يمثلون مصر ، وسائر العالم العربى ، وخمسة من كبار المستشرقين يمثلون : إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وهولندة .

وكان فقيدنا أصغر هؤلاء العشرين سنا ، بل كان عمره أقل من متوسط عمر الأعضاء بنحو عشر ين عاما ، وأقل من سن بعض الأعضاء بأربعين سنة ؛

هذا هو الفقيد الذى نجتمع اليوم لتأبينه فى المجمع الذى اتصلت حياته العلمية به منذ أربعين سنة .

ولد هاميلتون الكزاندر وسكين جب فى الاسكندرية ، فى الثانى من يناير سنة ١٨٩٥ من سلالة اسكتلندية أبا وأما ، وكان والده مديرا لمزرعة تابعة لجمعية استصلاح الأراضى الزراعية .

وفى سن الخامسة أرسل هاميلتون الصغير إلى استكلنده ليتعلم هناك . وقضى فى هذه المرحلة اثنى عشرة عاما ، حتى سنة ١٩١٢ . وفى خلال تلك المدة حضر إلى مسقط رأسه مرتين لقضاء الصيف مع والدته التى كانت ما تزال تقيم فى مصر .

وقد شملت دراسته فى هذه المرحلة اللغتين العريقتين اليونانية واللاتينية ، واللغتين الحديثتين الفرنسية والألمانية ، كما شملت العلوم الطبيعية .

وفى سنة ١٩١٢ التحق الشاب الذى كان فى سنته الثامنة عشرة بجامعة أدنبرة . وهنا ظهر له ميل يمكن أن نعزوه إلى ميلاده فى بلد عربى قضى فيه باكورة حياته ، فقد التحق فى السنة الجامعية الأولى بشعبة الدراسات السامية ، لدراسة اللغة العربية والعبرية والآرامية وكان أستاذه فى اللغة العربية هو الأستاذ ادوارد روبرتسون الذى سعدت بزمالته بعد ذلك بربع قرن فى جامعة منشستر اثنتى عشر سنة : وكثيرا ما حدثنى عن تلميذه النجيب هاميلتون جب . وكان له أثر كبير فى تحبيب دراسة اللغة العربية اليه

وانقطعت دراسة جب الجامعية بقيام الحرب العالمية الأولى ، فقد التحق بالجيش سنة ١٩١٤ وخدم فى فرنسا من سنة ١٩١٧ حتى إعلان الهدنة سنة ١٩١٨

ثم عاد إلى الجامعة وحصل فى سنة ١٩١٩ على درجة الليسانس (بنظام الحرب) وهى درجة أنشأتها الجامعات البريطانية للطلاب الذين قطعوا دراساتهم الجامعية للالتحاق بالقوات المسلحة باسم War Degree

والتحق بعد ذلك بمدرسة اللغات الشرقية بلندن . وكانت وليـدة الحرب ، ولكنها ضمت إلى جامعة لندن كلية من كلياتها . وحصل منها على درجة الماجستير فى اللغة العربية سنة ١٩٢٢ ، وعين مدرسا مساعدا فيها ، وكان موضوع رسالته « الفتوحات العربية فى وسط آسيا » ؛

وهنا تحدد فى ذهنه المنهج العلمى الذى أراد أن ينتهجه فى حياته ، وهو التأريخ للحياة العربية الإسلامية ، فى سياستها واجتماعها واقتصادها ودينها . وأعتقد أننى لا أعدو الحقيقة إذا قلت إنه كان لأستاذه العظيم ، سير توماس آرنولد ، أثر مباشر فى هذا الاتجاه فقد كان هذا العلامة أستاذا للتاريخ الإسلامى فى جامعة لندن ، وكان جب مساعدا له .

وقد قام فى المدة التى كان يعمل فيها معه برحلتين علميتين ، إحداهما فى شمال أفريقية ، والأخرى فى الشرق الأوسط .

وفى سنة ١٩٢٩ عين فى جامعة لندن بلقب "Reader" للتاريخ الإسلامى واللغة العربية ويعبر هذا اللقب فى الجامعات الإنجليزية عما نسميه فى جامعاتنا أستاذا بدون كرسى ، ولما خلا الكرسى فى سنة ١٩٣٠ بوفاة أستاذه ، سير توماس آرنولد ، شغله هذا الأستاذ الذى كان بمقياس السن شابا صغيرا ، حتى لقبه المستشرق ليثى دلا فيدا بالأستاذ الحدث السن "The young professor"

وكما خلف أستاذه فى الكرسى الجامعى ، خلفه كذلك فى الإشراف على دائرة المعارف الإسلامية سنة ١٩٣١ ؛ وكان هنا كذلك أصغر المشرفين على هذه الدائرة سنا. كان أصغر من ليفى دلافيدا بتسع سنوات ، ومن فنسنك بخمس عشرة سنة . وفى الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الإسلامية كان أحد المشرفين الأصليين ، بعد ما تجلى من جهده فى المدة التى حل فيها محل أستاذه فى الطبعة الأولى .

وبقى الأستاذ جب فى جامعة لندن من سنة ١٩٣٠ حتى سنة ١٩٣٧ حين خلا كرسى اللغة العربية فى جامعة أكسفورد من شاغله الأستاذ مرجوليوث ، فشغله فقيدنا من سنة ١٩٣٧ حتى سنة ١٩٥٥

وفى تلك السنة دعته جامعة هارفارد بالولايات المتحدة ، أستاذا ومستشارا للدراسات العليا - وبعد ذلك بعامين عين مديرا لمركز دراسات الشرق الأوسط .

وفى سنة ١٩٦٤ تقاعد مع بقائه مشرفا على ذلك المركز .

ولايتسع المقام للحديث عن النشاط العلمى للفقيد ، فكتاباته تملأ آلاف الصفحات ، ومحاضراته استمع إليها علماء البلاد العربية والاسلامية ، وبعض البلاد الأوربية والأمريكية .

وقد كرمته دول وهيئات علمية كثيرة . فقد منحته دولته لقب سير سنة ١٩٥٤ ، ومنحته فرنسا وهولندة بعض الأوسمة . وكان عضوا فى الأكاديمية البريطانية ، والأكاديمية الدانمركية ، والجمعية الفلسفية الأمريكية ، وكان عضوا فخريا فى الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم ، وعضوا فخريا فى الأكاديمية الأمريكية للقرون الوسطى وعضوا مؤسسا فى مجمعنا هذا ، وعضوا مراسلا بمجمع اللغة العربية بدمشق ، وعضوا مراسلا بالمجمع العلمى العراقى .

وسأقتصر على لمحات من نشاطه .

فى هذا المجمع اشترك الفقيد فى لجنة رسم الحروف ، ولجنة الأصول ، ولجنة معجم فيشر ، ولجنة الأعلام الجغرافية ، ولجنة

اللهجات . وفى افتتاح دورة الانعقاد الثالثة سنة ١٩٣٦ جاء فى خطابه قوله :

« قد أشار الزميل المحترم السيد محمد كرد على بك إلى أن المجمع قد تجاوز سن الرضاعة ، ويدخل الآن فى سن الحضانة ، واحتج بصغر سنه على من يلح عليه بأن ينوء بأعباء فوق طاقته الحالية .

والمجمع كله يؤيد ولا شك هذا الاحتجاج ومما يزاد على ذلك أن سن الحضانة هى فى الوقت نفسه سن التعليم والاستعداد لأعمال الرجولة ، وأن تجاربنا فى سنتى الطفولة قد برهنت على أن نجاح المجمع فى تأدية وظيفته نحو العالم العربى يتوقف على استعدادنا لساوك طريق طويل المدى ، دارس المعالم - طريق الاكتشاف والتوسع ، وهو طريق لا يسلك إلا بشىء من الجرأة ، ولا يسلم من الضلالة فيه إلا من استعد له بكامل العدد ، وليس منا أحد إلا وهو يعترف بأنه تعلم فى الدورتين اللتين مضتا كثيرا . واوصرح لى بإشارة شخصية لقلت تعلم كثيرا جدا مما كان يجهله .

أما مدرستنا فليست محصورة بين هذه الجدر الأربعة ، بل تمتد إلى حدود العالم العربى وإلى ما وراءها . وياحبذا لو أن العالمين بأنواع العلوم والفنون الذين ينظرون إلى المجمع بعين العطف والإخلاص ، أجابوا دعوته إلى الاشتراك معه فى أعماله . ولن يتحقق صعوبة وظيفة المجمع فى القرن بين تيار الجديد وتراث القديم إلا من جربها . فويل للغة مصادرها ومعجماتها ، دون الشعور الحى للناطقين بها ، وويل أيضا للغة ينطق ويكتب الناطقون بها طوع أهوائهم ويضربون بمعجماتها عرض الأفق لذلك كان رجاؤنا إلى المخلصين المنتقدين جميعا أن لا يلزمونا التسرع فى إصدار الرأى قبل أوانه .

وبهذه الروح — روح الاجتهاد فى العمل ، وروح التعاون نتقدم إلى أعمال الدورة الثالثة عسى الله أن يوفقنا إلى أن نجعلها ، كما قال معالى الرئيس وباشرافه الكريم ، حافلة بالخير والبركة على اللغة » .

وفى مؤتمر الدورة الثالثة عشرة سنة١٩٤٨ ألقى الفقيد كلمة جاء فيها :

« أفتتح كلمتى معترفا بالتقصير - أوبالأحرى بما يشبه التقصير - فى التخلف عن شهود المؤتمرين الماضيين . على أنى لم أقطع صلتى بالمجمع ؛ فإنى لا أزال من أشد أعضائه تفاؤلا بمستقباه ، وإيمانا بمهمته .

وقد كنت خلال هذين العامين أعمل مع إخوانى المستشرقين فى انجلترا . وقصة عملنا طويلة ، وهذا موقف اختصار . وربماأتيحت لى فى غير هذه المناسبة فرصة لشرح التفاصيل وحاصل الأمر أننا ، أساتذة اللغات والثقافات الشرقية فى انجلترا ، كنا فى هاتين السنتين متطوعين نجاهد فى توسيع نطاق الدراسات الشرقية فى جامعاتنا ، وقد تابعنا هذا الجهاد

فى جبهتين مستقلتين ، جبهة حكومية ، وأخرى داخلية .

فأما الجبهة الحكومية فقد ابتدأت بتأليف لجنة رسمية مثلت فيها كثرة الوزارات لبحث حالة الدراسات الشرقية فى الجامعات فاستمرت فى البحث أكثر من سنة ، بل نحو سنتين ، ودرست تقارير الجامعات والمستشرقين ، وأصدرت تقريرا يسمى تقوير سكار بارا ، دعت فيه إلى إرصاد مبالغ وافرة لتشجيع الدراسات الشرقية فى الجامعات ، وحث الطلبة المتميزين على التخصص فى هذه الدراسات .

وأما الجبهة الداخلية فقد جمعت أساتذة اللغات الشرقية وغرضها تنظيم الدراسات الشرقية فى جامعاتنا . والاستفادة مما كسبناه من التجارب أثناء سنى الحرب الماضية فى تعليم الضباط . وفى سنة ١٩٤٦ عقدنا مؤتمرا عاما فى أكسفورد بمناسبة مرور مائتى سنة على ميلاد سير وليام جونز (Sir William Jones) من أكابر المستشرقين فى القرن الثامن عشر. وقد اشترك فى هذا المؤتمر أساتذة اللغات والثقافات الشرقية ، وبحثوا فى أساليب التدريس ووسائل التعرف إلى الثقافة العربية والهندية وغيرها من ثقافات الشرق ، وكيفية نشرها بين الجمهور . وقد نجح المؤتمر نجاحا أكاد أقول غريبا . واتجه العزم إلى انشاء جمعية خاصة للمهتمين بهذه الدراسات ، لتواصل عقد المؤتمرات والأبحاث لتنظيم أعمالنا ونشر ثقافاتنا ، إذا سمحتم لى أن أقول ثقافاتنا . . . وقد ألفت هذه الجمعية فى مؤتمر عام انعقد فى كمبردج فى السنة الماضية ، وشرعت الجمعية فعلا فى القيام ببعض الأعمال .

وفى أثناء ذلك فتحت جبهة ثالثة ، هى جبهة ما وراء البحار ، فإن هذه الحركة فى انجلترا تردد صداها فى بعض الدوائر العلمية الأمريكية ، فدعت مؤسسة روكفيلر وفدا منا للاتصال بالمستشرقين فى جامعات أمريكا والاشتراك معهم فى بحث الأساليب الكفيلة بتشجيع الدراسات الشرقية فى الجامعات الأمريكية ، وتنظيم وسائل التعاون فى هذه السبيل ، بين الأساتذة الانجليز والأمريكيين وقد تم الاتصال المنشود ، ورسمت بعض الخطوط العملية للقيام بغرضين : تشجيع الدراسات الثقافية العربية فى الجامعات الأمريكية ، والتعاون على بث التعرف إلى الثقافة الإسلامية والعربية فى بلادنا .

وتلك هى الجبهات الثلاث التى كانت تعمل على تنظيم الجهود فى السنين الماضيتين وعسى أن يراها المجمع جديرة باهتمامه » .

وقد أشرت فيما سبق إلى أن الفقيد توج أعماله العلمية بما قام به فى جامعة هارفارد ، ومركز دراسات الشرق الأوسط بها .

ومما يجدر بى أن اشير اليه ، بصدد إشراف الفقيد على دائرة المعارف الاسلامية ، أنه إلى جانب ذلك الجهد العلمى الشاق ، قد ساهم بنحو ثلاثين مقالة فى تلك الموسوعة

وكان من الطبيعى أن تكون مقالاته عن تاريخ بلاد وشخصيات عربية ، وموضوعات إسلامية . فمن ذلك مقالاته عن عدن ، والبحرين ، ومصر ، وحضرموت ، واليمن ، وعبد العزيز بن سعود ، ومحمد على ، وسعد زغلول ، وعن اللغة العربية ، والخلافة والدروز .

كذلك أود الإشارة إلى كتاباته عن أعمال بعض الزملاء المجمعيين . فقد كتب عن قاموس شرف ، وعن إحياء النحو للمرحوم إبراهيم مصطفى ، وعن قرية ظالمة الدكتور محمد كامل حسين .

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية كان من حظى أن أترجم لسير هاميلتون مقالتين عن الأدب العربى ، نشرتا فى مجلة « الأدب والفن » الأولى فى العدد الثانى من السنة الأولى سنة ١٩٤٣ والثانية فى العدد الأول من السنة الثالثة سنة ١٩٤٥ . وأعيد نشرهما فى كتابه « دراسات فى حضارة الاسلام » سنة ١٩٦٢

"Studies on the civilization of Islam"

ومما جاء فى المقالة الثانية بعنوان « نشأة الإنشاء الأدبى » محاولة الكاتب فى تعريف الأدب ، إذ يقول :

« الأدب ، كما هو معروف لكل إنسان كلمة اصطلاحية تدل على إنتاج إنشائى من طراز خاص باللغة العربية . غير أن الكتابات التى تندرج تحت هذه الكلمة تتنوع تنوعا كبيرا فى موضوعاتها ، وأساليبها ، وأغراضها ، بحيث يصعب أن نجد عبارة تشملها جميعا . ويترجم الكتاب الأوربيون عادة كلمة أدب ، بهذا المعنى ، بالعبارة (Belle — lettres) أو الأدب الجميل ، أو الكتابة الرفيعة ، وهى عبارة تكاد تكون فى صعوبة اللفظ العربى تحديدا .

ولأيسر لنا أن نعرف الأدب تعريفا سلبيا. فنحدد ما لا يدخل تحته بأن نميزه من الكتابات التى فى فقه اللغة ، والفلسفة ، والتاريخ والجغرافية ، وما إلى ذلك على أننا سنرى أن الحد الفاصل بينه وبينها ليس واضحا بحال من الأحوال . ولعل أقرب تعريف يتسنى لنا وضعه هو أن نقول إن كتابا فى الأدب هو كتاب يكتبه مؤلفه وهو يشعر بغرض أدبى أو إنشائى ، سواء أكان يعالج موضوعا فى فقه اللغة أو التاريخ أو الأخلاق أو التسلية المحضة ؛ فالكاتب فى فقه اللغة أو التاريخ مثلا يرمى فى كتابته إلى هدف واحد ، هو تزويد القارئ بمعلومات أو تنظيم بعض الحقائق وتبويبها لتزود القارئ بمعلومات على حين أن كاتب الأدب يدخل فى موضوعه أيا كان ذلك الموضوع ، عنصر الخيال أو الابتكار بما يضفى عليه ثوب الجمال أو الفن ، فيجعله سائغا شائقا للقراء الذى يشاكلونه فى ميولهم وأذواقهم العقلية . ويحدث هذا طبعا بدرجات مختلفة فى مستوياتها من حاسة الجمال المرهفة المثقفة التى تتميز بها الدوائر الأدبية الواسعة الاطلاع ، إلى الفجاجة والفظاظة التى تتمثل فى دهماء الشوارع .

فسنجد عناصر من جميع هذه المستويات ممثلة فى الانشاء الأدبى وأنه من أجل ذلك كانت تلك الكتابة الأدبية إذا فهمت فهما صحيحا ، هى المصدر الذى نجد فيه أصدق صورة للمجتمع الاسلامى فى القرنين التاسع والعاشر ، ذلك المجتمع الذى كان مدهشا فى حيويته ، وبحثه ، وقوته ، وتشعب نواحيه » .

وبعد: ألم أقل من قبل أن اهتمام هذا الأستاذ كان يدور فى فلك التاريخ السياسى والاجتماعى للمجتمع الاسلامى .

فها هوذا يعلن أنه يستهدف من دراسته للأدب العربى ، تحليل صور الحياة فى المجتمع الاسلامى .

لقد عاش هذا المستشرق العظيم دارسا ومعلما فى هذا الاطار الشامل للدراسات الاسلامية . وما أبعدنى عن انتقاص قدره فى يوم تكريم ذكراه ، إذا لاحظت أن أوجز أعماله وأصغرها حجما ، هو كتابه « الأدب العربى : مقدمة
"(Arabic Literature : On Introduction"

كما يدل على ذلك هذا العدد الكبير من البحوث التى كتبها ، والتى تميزت إلى جانب عمقها ، بتنوعها وتعددها ، فكانت بمثابة روضة يانعة مترامية الأطراف متنوعة الثمار وكان بين أشجارها شجرة صغيرة جميلة هى شجرة « الأدب العربى » .

باسم هذا المجمع الموقر ، الذى شرفنى بالتحدث باسمه فى تأبين فقيدنا الكريم ، أحيي هذا الإنتاج العلمى العظيم فى ميدان الثقافة العربية الاسلامية ، وأحيي صاحبه فى مثواه الأخير .

وإذا كان هناك مؤسسة قديمة باسم مؤسسة جب : The Gibb Memorial فإن مؤسسة معنوية جديدة لذكرى هاميلتون جب قد أقامها لنفسه فقيدنا الكريم .

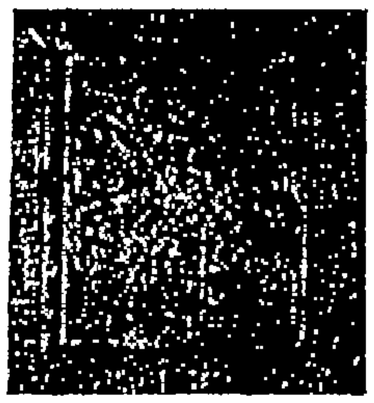

Arabic Literature : On Introduction.